الفصل الرابع

النظرية النقدية النسوية
Feminist criticism

"لست نسوية – فأنا أحب الرجال"!
"لست نسوية – أعتقد أنه ينبغي أن تكون النساء قادرات على البقاء في البيت وتربية الأولاد إذا أردن ذلك"!
"لست نسوية – فأنا أرتدي صدرية الثديين"!

على النقيض من آراء كثير من الطلاب المستجدين في دراسة النقد الأدبي النسوي، تحب الكثيرات من النسويات الرجال، ويعتقدن أنه ينبغي أن تكون النساء قادرات على البقاء في البيت وتربية الأولاد إذا أردن ذلك، ويرتدين صدرية الثديين. ومن خلال تعريفه الشامل، يدرس النقد النسوي الطرق التي يقوم بها الأدب (والنتاجات الثقافية الأخرى) لتبرير أو تقويض اضطهاد النساء اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً. ولكن، وعلى شاكلة ممارسي النظريات النقدية، يتبنى النسويون آراء مختلفة حول جميع القضايا التي تقع ضمن مجالهم .وفي الواقع، يسمي بعض النسويين حقلهم النسويات للتأكيد على تعدد وجهات نظر المتبنين لهذا المجال ولتقديم طرق في التفكير تتعارض مع التوجه التقليدي المبني على أساس الإيمان بوجود وجهة نظر وحيدة تكون هي الأفضل. ومع هذا فإن الكثير ممن اتجهوا منا إلى دراسة النظرية النسوية حديثاً، سواء كانوا رجالاً أم نساء، قد قرروا في وقت سابق لأوانه أنهم ليسوا نسويين، لأنهم لايؤمنون ببعض وجهات النظرية النسوية التي يجدونها أقل تقبلاً. وبتعبير آخر، كثير منا قد قلص النسوية، حتى قبل وصوله إلى قاعة النظرية النسوية، إلى أجزائها الأقل تقبلاً ورفضها على ذلك الأساس. وأعتقد أن هذا الموقف يظهر النظرة السلبية والتبسيطية إلى النسوية التي لا تزال موجودة في الثقافة الأمريكية اليوم. فقد جمعنا هذا التحيز ضد النسوية، الذي نأتي به إلى قاعات المحاضرات من الثقافة بشكل عام– من البيت ومكان العمل ووسائل الإعلام وغير ذلك.

ولنرى كيف يقوم هذا التبسيط السلبي المبالغ فيه بمنعنا من رؤية جدية للقضايا التي تثيرها النسوية .دعونا نتفحص أحد أكثر مطالب النسوية إلحاحاً، وهو أنه لا ينبغي استخدام الضمير الذكري "هو" لتمثيل كل من الرجال والنساء، فبالنسبة لكثير من الناس يعتبر ذلك المطلب مثالاً للمطالب النسوية السخيفة. فما الذي سيختلف لو تابعنا في استخدام الضمير "هو" الشمولي للإشارة إلى أفراد الجنسين؟ إننا نعرف ما نعنيه عندما نقوم بذلك: إنه ببساطة

تقليد لغوي يشمل المذكر والمؤنث. ويؤمن هؤلاء الناس أن النسويين يجب أن يركزوا على الحصول على حقوق متساوية، وينسوا هذا الهراء حول الضمائر! ولكن استخدام الضمير "هو" للإشارة إلى أفراد الجنسين يعكس بالنسبة لكثير من النسويين عادة في التفكير وطريقة في النظر إلى الحياة، تستخدمان تجربة الذكر معياراً يجري بموجبه تقييم تجربة كلا الجنسين. وبتعبير آخر، فبالرغم من أن "هو الشامل" يدعي تمثيل كل من الرجال والنساء، فإنه في الواقع جزء من موقف ثقافي متجذر يتجاهل تجارب النساء، ويمنعنا من رؤية وجهة نظرهن. ويمكن رؤية الآثار الضارة لهذا الموقف في كثير من المجالات.

فعلى سبيل المثال، قبل أن يظهر النضال الطويل من أجل المساواة للمرأة، كانت الأعمال الأدبية للكتاب (البيض) من الرجال في أواخر ستينيات القرن العشرين تصف التجربة من وجهة نظر الذكر (الأبيض) التي كانت تعتبر معياراً للعالمية -أي ممثلة لتجارب كل القرّاء- وكانت العالمية معياراً رئيساً للعظمة. ولأن أعمال الكاتبات (البيض) وكل الكتاب الملونين لم تصف التجربة من وجهة نظر الذكر (الأبيض) لم تعتبر عالمية، ولذلك لم تصبح جزءاً من الأعمال الأصيلة .وما يثير الاهتمام هو أن الرواج لم يعتبر بالضرورة دليلاً على العالمية، لأن كثيراً من الكاتبات اللواتي تمتعن بشهرة واسعة خلال حياتهن لم "يعترف" بهن في التأريخ الأدبي الذي ركز بشكل أساسي على الكتاب الذكور. ولم يعتقد من التزم بهذا المعيار للعظمة أنه كان متحيزاً بشكل غير عادل. فببساطة كانوا يؤمنون بأنهم كانوا يرفضون أعمالاً أدبية لم تكن عالمية، ولم تكن عظيمة. وحتى عندما بدأت الكاتبات (البيض) بالظهور كاتباتٍ أصيلات وفي المناهج الجامعية في أواسط السبعينيات، فإنه لم يجري تمثيلهن على قدم المساواة مع الكتاب (البيض) من الرجالَ.

وإذا لم تكن وجهة النظر التاريخية أو النقدية نسوية، فهناك حتى في يومنا هذا ميل إلى التقليل في تمثيل إسهام الكاتبات. فعلى سبيل المثال يذكر ما ثيو جيه بروكلي Mathew J. Bruccoli في تقديمه لطبعات حديثة من (جاتسبي العظيم) The Great Gatsby أن العشرينيات كانت عصر إنجاز "في الأدب الأمريكي." ويقدم قائمة بأسماء اثني عشر كاتباً ليثبت دعواه. وبين هؤلاء الاثني عشر هناك كاتبة واحدة فقط — ويلا كاثرWilla Cather. فماذا عن إلين جلاسجو Ellen Glasgow، وسوزان جلاسبيل Susan Glaspell ونيلا لارسن Nella Larsen و إدنا سينت فينسنت ميلاي Edna St. Vincent Millay و رولا لين ريجس Rolla Lynn Riggs و جونا بارنز Djuna Barnes و إليزابيث مادوكس روبيرتز Elizabeth Maddox Roberts و جيروترود شتاين Gertrude Stein و إيتش دي (هيلدا دوليتل) H. D. (Hilda Doolittle) و ماريان مور Marianne Moore؟ والحقيقة أن عدداً كبيراً من الطلاب سيتعرف على الأغلب على عدد قليل من هذه الأسماء التي تُظهر تهميش التاريخ الأدبي لكثير من الكاتبات رغم أن جمهور القراء في زمن هؤلاء الكاتبات لم يقم بتهميشهن . وكذلك فإن عين الكاميرا (أي وجهة النظر التي يجري تصوير

الفيلم وفقاً لها) هي مذكر: تحدق الكاميرا بالشخصيات المؤنثة، خلافاً للذكور، وتجعلها أكثر إثارة للرغبة، وكأن عين رجل تنظر إليها، كما لو أن وجهة نظر كل من يذهب إلى السينما هي المذكر . ولعل أكثر الأمثلة قسوة على الآثار المدمرة لطريقة التفكير هذه موجودة في عالم الطب الحديث حيث يجري تجريب الأدوية التي توصف لكلا الجنسين على الذكور فقط. بتعبير آخر، غالباً ما يجري استخدام استجابات الذكور للأدوية في التجارب المخبرية التي تحدد سلامة الأدوية التي تستخدم في الوصفات الطبية قبل تسويقها من أجل جمع بيانات إحصائية عن فعالية الدواء وأعراضه الجانبية المحتملة. ونتيجة لذلك يمكن أن تعاني النساء من أعراض جانبية لا يعاني منها الذكور. فكيف تأتَى لعلماء الطب ألا يتوقعوا مثل هذه المشكلة. بالتأكيد إنها العادة الثقافية التي تعتبر تجربة الذكور الدور العالمي الذي يمكن القيام به.

الأدوار التقليدية للجنسين

قَدّمتُ الأمثلة السالفة في البداية لأنني أعتقد أنها تظهر بعض الطرق التي جرت فيها برمجة بعضنا، بما في ذلك نفسي، للنظر أو التعامي بطريقة معينة. فأنا أعتبر نفسي امرأة تتعافى من الذكورية. وأعني بالمرأة الذكورية امرأة قد تشربت قيم الذكورية ومبادئها، والتي يمكن تعريفها باختصار كأي ثقافة تميز الرجال بتشجيعها لأدوار الجنس التقليدية. فأدوار الجنس التقليدية تصف الرجال على أنهم عقلانيون وأقوياء ويقدمون الحماية وحازمون، بينما تصف النساء بالعاطفيات، والضعيفات، والخَضوعات، والمربيات. وقد استخدمت أدوار الجنس هذه بنجاح لتبرير عدم المساواة، والتي لا تزال موجودة حتى اليوم مثل استبعاد النساء من الفرص المتساوية في الوصول إلى مواقع القيادة واتخاذ القرار(في الأسرة والسياسة والحياة الأكاديمية وعالم الشركات) وفي دفع أجور أعلى للرجال من النساء في الوظيفة نفسها، هذا إذا استطاعت النساء الحصول على الوظيفة، وفي إقناع النساء أنهن غير مؤهلات لمهن في مجالات كالرياضيات والهندسة. ويعتقد الناس أن عدم المساواة من هذا القبيل قد أصبحت شيئاً من الماضي لأنه قد جرى سن قوانين تمنع التمييز كالقانون الذي يضمن للنساء أجراً مساوياً لأجر الرجال في الأعمال المتساوية. ولكن هذه القوانين غالباً ما يجري تجاهلها، فعلى سبيل المثال، يمكن لرب العمل أن يدفع للمرأة أجراً أقل مقابل قيامها بعمل الرجل نفسه (أو حتى أكثر من عمل الرجل) بسهولة، وذلك بإعطائها لقباً وظيفياً مختلفاً. وهكذا لا تزال النساء تتقاضى ما يقارب الخمسة والخمسين إلى الثمانين سنتاً، وذلك حسب الاثنية والعمر، مقابل كل دولار يتقاضاه الرجل.

فالذكورية، بحكم تعريفها، متحيزة جنسياً، بمعنى أنها تنشر الاعتقاد بأن النساء دون الرجال بالخلقة. وهذا الاعتقاد بالدونية غير المكتسبة للمرأة هو أحد أشكال ما يسمى "الأساس البيولوجي"، لأنها مؤسسة على الفوارق

البيولوجية بين الجنسين التي تعتبر جزءاً من ثوابتنا غير المتغيرة رجالاً أو نساءً. ويمكن اعتبار كلمة "هستيريا"، المشتقة من الكلمة اليونانية التي تعني الرحم (hystera)، وتشير إلى الاضطرابات النفسية التي تعتبر خاصة بالنساء، وتتميز بالسلوك البالغ العاطفية والانعدام القوي للعقلانية، توضيحاً قوياً لهذه الفكرة. إن النسويين لا ينكرون الفروق البيولوجية بين الرجال والنساء، ويرحب كثير من النسويين بهذه الفروق، ولكنهم لا يوافقون على أن فروقاً كحجم الجسد، وشكله، وكيميائه تجعل الرجال متفوقين بشكل طبيعي على النساء، : وأنهم، على سبيل المثال، أكثر ذكاء، أو أكثر منطقية، أو أكثر شجاعة، أو أفضل قيادة. ولذلك تميز النسوية بين كلمة "جنس" (sex) التي تشير إلى التكوين البيولوجي للذكر والأنثى وكلمة "جنس" (gender) والتي تشير إلى البرمجة الثقافية كالمذكر والمؤنث. بتعبير آخر، لا تولد النساء مؤنثات ولا يولد الرجال مذكرين. فمفردات الجنس هذه قد قام المجتمع بتشكيلها، ولهذا يمكن اعتبار هذا المفهوم للجنس مثالاً لما أصبح يدعى "بالتركيب الاجتماعي."

ولقد لاحظ النسويون أنه قد جرى استخدام الاعتقاد بأن الرجال متفوقون على النساء لتبرير استحواذ الذكور على مراكز القوة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمحافظة عليها، أي المحافظة على إضعاف النساء بحرمانهن من وسائل الحصول على القوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية عن طريق التعليم أو العمل. فالمكانة المتدنية التي احتلتها النساء في المجتمع الذكوري، قد تكونت ثقافياً وليس بيولوجياً .فمثلاً الافتراض الذكوري بأن النساء تعانين من الهستيريا أكثر من الرجال هو افتراض ذكوري وليس حقيقة. ولأن الهستيريا قد جرى تعريفها بهذا الشكل، فلا يمكن تشخيص السلوك الهستيري لدى الرجال على أنه هستيري، وإنما يتم بدلاً من ذلك تجاهله أو إعطاؤه اسماً أقل انتقاصاً كحدة المزاج، مثلاً. وبالمقابل لا يتقبل كل الرجال الأيديولوجية الذكورية، وهؤلاء الذين لا يتقبلونها—أي لا يتقبلون مثلاً بأن الرجال الذين يتمتعون بعضلات أقوى بصورة طبيعية يتمتعون أيضاً بتفوق طبيعي – غالباً ما يزدريهم كل من الرجال والنساء الذكوريين باعتبارهم رجالاً ضعفاء يفتقدون الرجولة كما لو أن الطريقة الوحيدة ليكون المرء رجلاً هي أن يكون رجلاً ذكورياً.

إنني أدعو نفسي امرأة ذكورية لأنني قد بُرمجت اجتماعياً، شأن أكثر الرجال والنساء، على ألا أرى كيف تُضطهد النساء في أدوار الجنس التقليدية، وأقول إنني أتعافى لأنني تعلمت أن أتعرف على هذه البرمجة وأن أقاومها. وبالنسبة لي، سيتطلب هذا التعرف وهذه المقاومة جهداً دائماً– وأقول إنني أتعافى بدلاً من تعافيت – ليس فقط لأنني تشربت البرمجة الذكورية منذ زمن طويل، ولكن لأن ذلك البرنامج لا يزال يفرض نفسه في عالمي: في الأفلام، وعروض التلفاز، والكتب، والمجلات، والدعايات كما في تصرفات الباعة الذين يعتقدون بأنه لا يمكنني أن أتعلم كيفية تشغيل آلة بسيطة، وفي تصرفات تقنيي الإصلاحات الذين يفترضون بأنني لا أكتشف أنهم لم يقوموا بعملهم بشكل مرضٍ، وفي تصرفات السائقين الذكور الذين يعتقدون بأنني سأسعد بعروضهم الجنسية التي ينادون

بها من سياراتهم العابرة، (وأسوأ من ذلك عدم تفكيرهم لحظة بمشاعري، وأسوأ من كل هذا أملهم بأنني سأشعر بالخوف لكي يشعروا بالقوة). فالنقطة التي أود طرحها هنا سهلة: إن الذكورية تفرز باستمرار قوى تقوض شعور النساء بالثقة أنفسهن وإثبات ذواتهن، ومن ثم تشير إلى غياب هذه الصفات دليلاً على أن النساء، بحكم طبيعتهن خاضعات، ولا يبحثن عن إثبات الذات وبالتالي فإن ذلك أمرٌ واقعٌ.

وفي مثال آخر للبرمجة الذكورية، فإن الفتيات الصغيرات في الماضي (ولا يزال بعضهن في الحاضر) يُخبرن مبكراً خلال مسيرتهن التعليمية بأنهن لا يستطعن دراسة الرياضيات. وإذا لم يُخبرن بذلك صراحة من قبل الآباء أو المدرسين أو الأصدقاء، فإنهن يُخبرن بذلك عن طريق لغة الجسد ونغمة الصوت وتعابير الوجه لكل من البالغين والزملاء. ولأنه غالباً ما يفترض بأن الفتيات الصغيرات لا يُجدن الرياضيات وأن هذا النقص لا يضير، لأن أغلبهن لن يحتجن إلى الرياضيات في حياتهن في المستقبل، فإن المدرسين لا يطلبون من الفتيات القيام بالعمليات الرياضية قدر ما يطلبون من الصبيان. وفي الحقيقة غالباً ما تُكافئ الفتيات لفشلهن في الرياضيات، فيتلقين تعاطفاً جاهزاً وتدليلاً وجوائز ترضية لكونهن إناثاً، وإذا استطاعت الفتيات أن تنجحن في الرياضيات رغم هذه العوائق، فسوف يُعتبرن استثناءات للقاعدة (الأمر الذي يعني من وجهة نظر الأطفال أنه يمكن اعتبارهن "طفرات"). وباختصار، فإن الفتيات يُبرمجن ليفشلن. وبعد هذا تشير العقلية الذكورية إلى درجات الطالبات المتدنية في الرياضيات، وفشلهن في دراستها تخصصاً أساسياً في الجامعة على اعتباره دليلاً على أن الفتيات غير مؤهلات بيولوجياً لدراسة الرياضيات، الأمر الذي يعني، وبسبب العلاقة الوثيقة بين الرياضيات والمنطق، أن الإناث أقل منطقية من الذكور. وبتعبير آخر فإن الذكورية تصنع الفشل ثم تستخدمه لتبرير مزاعمها عن النساء.

ولأنني امرأة تتعافى من الذكورية، فإنني على دراية بالطرق التي تكون فيها الأدوار التقليدية مدمِرة لكل من الرجال والنساء. فعلى سبيل المثال، إن أدوار الجنس التقليدية تفرض أن يكون الرجال أقوياء جسدياً وعاطفياً، فمن المفترض ألا يبكي الرجال، لأن البكاء علامة ضعف وإشارة إلى أن مشاعر الشخص قد غلبته. ولأسباب مشابهة يُعتبر التعبير عن الخوف أو الألم أو التعاطف مع الرجال الآخرين مُخِلاً بالرجولة. ويحرم بشكل خاص التعبير عن التعاطف نحو الرجال الآخرين، لأن الذكورية تفترض أن الأشكال الخالية من المثلية في العلاقات بين الرجال هي الأشكال الصامتة والرزينة، بالإضافة إلى ذلك لا يسمح بأن يفشل الرجال في شيء يحاولون القيام به، لأن الفشل في أي مجال يتضمن فشلاً في الرجولة.

إن الفشل في تقديم الدعم الاقتصادي للأسرة يعتبر الفشل الأكثر إهانة للرجل، لأنه يعني أن الرجل قد فشل في دوره البيولوجي باعتباره معيلاً. وإن واجب الرجل في أن ينجح اقتصاديا قد أصبح ظرفاً ضاغطاً في أمريكا المعاصرة، إن مدى النجاح الذي يفترض أن يحققه الرجال مستمر في الازدياد: فلكي يصبح أحدنا رجلاً "حقيقياً" في

زماننا، عليه أن يملك بيتاً وسيارة أكثر كلفة مما لدى والده وإخوته وأصدقائه، وعليه أن يرسل أولاده إلى مدرسة أكثر كلفة. وإذا لم يستطع الرجال تحقيق الأهداف الاقتصادية غير الواقعية المرسومة لهم في أمريكا المعاصرة فإن عليهم زيادة أمارات رجولتهم في مجالات أخرى، فيجب أن يكونوا جذابين جنسياً، أو جعل الآخرين يعتقدون أنهم كذلك، أو أن يكونوا قادرين على شرب أكبر كمية من الكحول، أو أن يُظهروا أكبر كمية من الغضب. وليس من المفاجئ في هذا السياق أن الغضب والمشاعر العنيفة الأخرى هي المشاعر المسموح بها، لأن الغضب وسيلة فعالة لحجب الخوف والألم اللذين لا يُسمح بهما .كما أن الغضب يولّد عادة أنواع السلوك العدوانية التي ترتبط بالرجولة الذكورية.

وأشير هنا إلى برمجة الذكور لسببين يعكس كل منهما تحيزاتي النسوية الشخصية .فأنا أريد من الرجال الذين يقرؤون هذا الفصل أن يروا في النسوية مجالاً لتعلم الكثير عن أنفسهم وعن النساء. وأريد أن يدرك القراء من كلا الجنسين أنه حتى عندما نعتقد أننا نتحدث عن الرجال فإننا نتحدث عن النساء أيضاً، لأنه في المجتمع الذكوري كل شيء يتعلق بالرجال يتضمن شيئاً يكون عادة (سلبياً) عن النساء. فمثلاً من المهم أن نلاحظ أن أنواع السلوك الموصوفة في الفقرتين السابقتين— وهي محرمة على الرجال—تعتبر "نسائية"، أي دونية ودون وقار الرجال. فالرجال وحتى الأولاد الذين يبكون يدعون مخنثين. وكلمة "مخنث" sissy لها صوت قريب من صوت "أخت" sister، وتعني "جبان" أو "مؤنث" والكلمتان في هذا السياق مترادفتان. ومن الواضح أن من أكثر الهجمات اللفظية المدمرة التي يمكن أن يتعرض لها الرجل هي أن يقارن بامرأة، فلذلك يتطلب كونك رجلاً "حقيقياً" في ثقافة ذكورية أن تحتقر الصفات الأنثوية. وتُضاف المثلية إلى قائمة السلوك الأنثوي، على الأقل تبعاً للرجال الأمريكيين، لأن التفكير الأمريكي النمطي عن الذكر المثلي هو أنه قوي الأنوثة رغم وجود أدلة كافية على رجولة قوية للذكور المثليين. وتتضمن هذه الظاهرة قيام الذكورية بوسم السلوك بالمؤنث عندما تريد أن تقوض سلوكاً ما. ومن المهم أن نلاحظ أن مفهوم الذكورية عن المؤنث- والذي يرتبط عادة بالضعف والتواضع والخوف- يضعف النساء في العالم الحقيقي: فليس من المؤنث أن تنجح في الأعمال أو تكون بالغ الذكاء أو أن تكسب دخلاً عالياً أو أن تتبنى آراء قوية أو أن تكون لديك شهية قوية لأي شيء كان، أو أن تؤكد على حقوقك.

ولأوضح باقتضاب الآثار الموهنة لأدوار الجنس على الرجال والنساء، دعونا ننظر في قصة "سندريلا". فمنذ زمن أدرك النسويون أن دور سندريلا الذي تفرضه الذكورية على خيال الفتيات الصغيرات هو دور مدمر لأنه يساوي الأنوثة مع الخضوع، ويشجع النساء على تحمل سوء المعاملة في الأسرة، وأن ينتظرن الإنقاذ على يد رجل، وأن ينظرن إلى الزواج على أنه الجزاء الوحيد المرغوب للسلوك "السوي". وبنفس الطريقة نجد أن دور "الأمير الساحر"— والذي يطلب من الرجال أن يكونوا منقذين أثرياء مسؤولين عن جعل نسائهم سعيدات إلى الأبد — هو

دور مدمر للرجال، لأنه يشجع على الاعتقاد بأن الرجال يجب أن يكونوا كاسبين للعيش بدون توقف وبدون أية حاجات عاطفية.

وللأسف، فإن فكرة النقد النسوي لحكايات الجن قد أصبحت موضوع سخرية المعلقين الاجتماعيين الذين يقدمون نسخاً ساخرة بشكل سخيف عن هذه الحكايات، ويدّعون أنها أكثر صحة من وجهة نظر سياسية من الحكايات الكلاسيكية لكي يظهروا لنا التطرف السخيف المزعوم الذي يمكن أن يقودنا إليه النسويون والساخطون. ولكن يمكن للقراءات النسوية لحكايا الجن أن تقدم وسيلة رائعة لإيضاح الطرق التي تشكل فيها الأيديولوجية الذكورية ما يبدو أكثر نشاطاتنا براءة. خذ على سبيل المثال، نقاط التشابه بين الحكايات الشهيرة "سنو وايت والأقزام السبعة" Snow White and the Seven Dwarfs و "الأميرة النائمة" Sleeping Beauty و"سندريلا" Cinderella . ففي كل من هذه الحكايات الثلاث فتاة شابة جميلة لطيفة، لأن المؤنث يجب أن يكون جميلاً ولطيفاً وشاباً إذا كان يستحق الإعجاب الرومانسي، تُنقذ لأنها غير قادرة على إنقاذ نفسها من وضع تعس على يد شاب وسيم يحملها بعيداً لتتزوجه وليعيشا بسعادة دائمة. فتتضمن الحبكة أن الزواج من الرجل المناسب ضمانة للسعادة ومكافأة مناسبة للمرأة التي تفكر على نحو سليم. ففي الحكايات الثلاث تتخذ الشخصيات المؤنثة الرئيسة قالب "الفتيات الطيبات" (لطيفات، خضوعات، أبكاراً وملائكيات) أو قالب "الفتيات السيئات" (عنيفات، عدوانيات، خبيرات ومتوحشات). فتتضمن هذه التوصيفات أن المرأة التي لا تتقبل دور الجنس الذكوري المخصص لها فإن الدور الذي يبقى لها هو دور الوحش. وتكون الفتيات السيئات في الحكايات الثلاث – الملكة الشريرة في "سنو وايت" والجنية الشريرة في "الأميرة النائمة" وزوجة الأب الشريرة في "سندريلا" – مغرورات وتافهات وغيورات وغاضبات لأنهن لسن بجمال الشخصية الرئيسة، أو في حالة الجنية الشريرة، لأنها لم تدع إلى الحفل الملكي. وتعني هذه الدوافع أنه عندما تكون النساء شريراتٍ فإن اهتماماتهن تافهة. وتستيقظ الفتاة في اثنتين من القصص من غفوة تشبه الموت بقوة قبلة ممن سيكون حبيباً لها (فهذه القبلة تعيدها إلى الحياة). وتعني هذه النهاية أن المرأة الشابة الذكورية الطيبة هي كامنة جنسياً حتى يوقظها الرجل الذي يعلن أحقيته بها. وبإمكاننا القيام بمزيد من التحليل لهذه الحكايات، كما يمكننا تحليل المزيد من الحكايات، لكن ما يهم هنا هو رؤية مدى إفساد الأيديولوجية الذكورية وكيف يمكنها برمجتنا بدون علمنا أو موافقتنا.

أشرت في الفقرة السابقة إلى "الفتيات الطيبات" و"الفتيات السيئات" وهذا المفهوم يستحق مزيداً من الانتباه، لأنه يُعدّ طريقة أخرى تستمر فيها الأيديولوجية المتحيزة جنسياً بالتأثير علينا. وكما رأينا سابقاً، فإن الأيديولوجية الذكورية تفترض بأن هناك هويتين فقط يمكن للمرأة أن تحصل على إحداهما. فإن هي قبلت دور الجنس التقليدي واتبعت القواعد الذكورية أصبحت فتاة طيبة، وإن هي لم تفعل فهي فتاة سيئة .وينظر هذان

الدوران – واللذان يشار إليهما أيضا بـ"العذراء" و"البغي"، أو "الملاك" و"العاهر"– إلى المرأة حسب علاقتها بالنظام الذكوري. وبالطبع تتغير كيفية تحديد الفتيات الطيبات والفتيات السيئات حسب الزمان والمكان اللذين يعشن فيهما. ولكن من سيقوم بعملية التحديد هو الذكورية لأن كلا الدورين انعكاس لرغبة الرجل الذكوري: مثلاً الرغبة في امتلاك نساء "ذوات قيمة" مناسبات لكي يكن زوجات وأمهات، والرغبة في السيطرة على المرأة جنسياً لأن نشاطها الجنسي يهدد نشاط الرجل الجنسي، والرغبة في الهيمنة على جميع الأمور المالية. وتخدم هذه الرغبة الأخيرة الأيديولوجية الذكورية، إذ تعتبر أنواعٌ من العمل غير مناسبة للفتيات الطيبات، وقد أجبرت هذه الأيديولوجية كثيراً من الكاتبات في انكلترا في العصر الفيكتوري على نشر أعمالهن تحت أسماء مستعارة لرجال ،كما تطلب من الكاتبات على ضفتي الأطلنطي تكييف فنهن للتوقعات الذكورية أو مواجهة العواقب، كما واجهتها كيت تشوبن Kate Chopin عند بداية القرن العشرين حين تم دفن أعمالها بسبب محتواها النسوي، ليبقى دون إعادة طباعة إلى أن قام النسويون بإعادة اكتشافه في أواخر الستينيات.

وحسب الأيديولوجية الذكورية التي بلغت أوج قوتها خلال الخمسينيات من القرن الماضي، والتي لا تزال نسخ منها موجودة في أيامنا، فإن "الفتيات السيئات" يخترقن الأعراف الجنسية الذكورية بطريقة أو بأخرى: فهن أكثر تعبيراً عن نشاطهن الجنسي عن طريق المظهر أو السلوك، وقد يكون لهن شركاء جنسيون متعددون. يقيم الرجال علاقات جنسية مع "الفتيات السيئات"، و لكن لا يتزوجونهن. "فالفتيات السيئات" يُستخدمن ويُرمين لأنهن لا يستحققن أفضل من ذلك، وربما لا يتوقعن أنفسهن أفضل من ذلك. فهن لسن صالحات لدرجة حمل اسم رجل أو حمل أولاده الشرعيين. فهذا الدور يناسب الفتاة الطيبة المطيعة بشكل صحيح. وتكافئ الثقافة الذكورية "الفتاة الطيبة"على سلوكها وذلك بوضعها على قاعدة. وتَنسب إليها كل الفضائل المرتبطة بالأنوثة الذكورية والحياة العائلية: فهي متواضعة، وغير مدعية، ومضحية، ومربية، وليس لها حاجات خاصة بها لأنها قانعة تماماً بخدمة أسرتها. وقد تحزن بسبب مشاكل الآخرين، كما قد تقلق بسبب من ترعاهم – لكنها لا تغضب أبداً. فقد كانت في الثقافة الفيكتورية في انكلترا "ملاكاً في البيت"، وكانت تجعل البيت ملاذاً آمناً لزوجها، حيث يحصن نفسه روحياً قبل أن يواصل سعيه اليومي في مكان العمل، ولأولادها حيث يتلقون التوجيه الأخلاقي الذي يحتاجونه ليقوموا بأدوارهم التقليدية في عالم البالغين.

ما المشكلة في أن تكون المرأة موضوعة على قاعدة تمثال؟ أحد هذه المشاكل أن قاعدة التماثيل صغيرة، وتترك مساحة ضيقة جداً للمرأة كي تقوم بأي شيء سوى القيام بالدور المرسوم لها. فمثلاً، لكي تبقى "الفتاة الطيبة"على قاعدتها الفيكتورية، كان يفترض أن تبقى غير مهتمة بالنشاط الجنسي، سوى ما كان لغرض التكاثر المشروع لأنه كان يعتقد أنه من غير الطبيعي أن تكون للمرأة رغبة جنسية. وفي الحقيقة كان من المعتقد أن تجد النساء الجنس مخيفاً أو مقززاً. وهناك مشكلة أخرى، وهي أن القواعد تهتز. ومن السهل أن يسقط الإنسان من القاعدة، وعندما تسقط

المرأة فإنها تعاقب. وفي أحسن الأحوال فإنها ستعاني من تجريم الذات لكونها غير مؤهلة لهذا الدور أو "غير طبيعية"، أما في أسوأ الأحوال فإنها ستعاني العقاب المادي من مجتمعها ومن زوجها. الأمر الذي كان –وحتى فترة قريبة –مشجّعاً من ناحية القانون والأعراف، والذي لا يزال النظام القضائي المتواطئ أو غير الفعال يسكت عنه غالباً. ومن المثير أن نلاحظ في هذا السياق أيضاً أن الذكورية تحول كلاً من "الفتيات الطيبات" و"الفتيات السيئات" إلى أشياء، فالذكورة تعامل النساء، مهما كان دورهن، باعتبارهن أشياء: فالنساء موجودات، حسب الذكورية، بوصفهن أشياء تستخدم بدون اعتبار لوجهات نظرهن أو شعورهن أو آرائهن. فمن وجهة نظر الذكورية لا يعتد بوجهة نظر النساء، ولا بمشاعرهن، ولا بآرائهن إلا إذا كانت متفقة مع الذكورية.

وفي الثقافة الأمريكية للطبقة الوسطى الصاعدة، يُنظر إلى المرأة على أنها مثال الكمال إذا استطاعت التوفيق بين الوظيفة والأسرة، الأمر الذي يعني أنها تبدو جذابة في المكتب وعلى طاولة الإفطار، وأنها لن تكون متعبة لتحضير العشاء، وتنظيف المنزل، والاهتمام بحاجات الأولاد، وإسعاد زوجها في السرير. ويعني هذا أن دخول المرأة الحديثة إلى أماكن العمل التي يهيمن عليه الرجال، لم يبلغ أدوار الجنس الذكورية ولو تبوأت بعض هؤلاء النساء وظائف كانت عادة للرجال. فكثير من هؤلاء النساء لايزلن محكومات بأدوار الجنس الذكورية في البيت، والتي عليهن القيام بها بالإضافة إلى أهدافهن المهنية.

إن استمرار المواقف القمعية تجاه سلوك المرأة الجنسي، لا يزال واضحاً في لغتنا اليوم، فمثلاً نستخدم المفردة السلبية "عاهر" slut لوصف امرأة تقيم علاقات مع عدد من الرجال، بينما نستخدم المفردة الإيجابية "فحل" stud لوصف الرجل الذي يقيم علاقات مع عدد من النساء. ورغم أن الموضة قد تغيرت بشكل جذري منذ القرن التاسع عشر، فإن اللباس الأكثر أنوثة لا يزال يشجع الأيديولوجية الذكورية. فالمشدّ شديد الضيق الذي كانت ترتديه النساء في القرن التاسع عشر مثلاً كان يمنعهن من الحصول على أوكسجين كاف ليكن نشطات جسدياً، وليتحملن المشاعر بدون "هستيريا": لقد اعتبر ضيق التنفس ونوبات الإغماء أموراً خاصة بالإناث، لإثبات أن النساء أكثر عاطفية وأقل صلابة من أن يشاركن في عالم الرجال. وعلى نفس المنوال، فإن أحد أكثر أساليب اللباس أنوثة للمرأة في الوقت الحاضر هو التنورة الضيقة والأكعاب العالية التي تخلق نوعاً من الخطو "المؤنث"، يتصل بشكل رمزي بالقدرات الجسدية المقيّدة التي كانت تفرضها ثياب النساء في القرن التاسع عشر، وبإعطاء فرصة الوصول الجنسي للرجال لأجساد النساء بما تمنحه تلك الألبسة.

ملخص المبادىءالنسوية

إلى الآن، درسنا كيف تقوم الأيديولوجية الذكورية بإبقاء الرجال والنساء في أدوار الجنس التقليدية لتحافظ بذلك على هيمنة الذكور. إن عمل الأيديولوجية الذكورية بهذه الطريقة هو اعتقاد مشترك بين كل النسويين، حتى

إذا لم يتفقوا حول كل المسائل الأخرى. في الحقيقة يشترك النسويون في عدة افتراضات هامة، يمكن تلخيصها كما يلي:

١- تضطهد الذكورية النساء اقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً، ونفسياً، وتعتبر الأيديولوجية الذكورية الوسيلة الأساسية التي تبقي النساء مضطهدات.

٢- في كل الميادين التي تسود فيها الذكورية، يُنظر إلى المرأة على أنها "الآخر." فيجري تحويلها إلى مجرد شيء، وإلى تهميشها. ويجري تحديد هويتها بالتركيز على اختلافها عن أنماط الذكور وقيمهم، أي تُعرف بما (يُزعم) أنها تفتقده، وما يُزعم أن الرجال يمتلكونه.

٣- إن الحضارة الغربية (الأنجلوأوروبية) متجذرة في الأيديولوجية الذكورية كما نرى مثلاً في النساء الذكوريات الكثيرات، وفي النساء المتوحشات في أدب الإغريق والرومان وأساطيرهم، وفي التفسير الذكوري لحواء في الإنجيل باعتبارها أصلاً للخطيئة وللموت في العالم، وفي تقديم الفلسفة الغربية التقليدية للمرأة بوصفها مخلوقاً غير عقلاني، وفي اعتماد المؤسسات التربوية والسياسية والقانونية والتجارية على التفكير المرتكز على الذكر phallogocetric thinking (التفكير الذي يميل نحو الذكر في مفرداته وقواعد منطقه ومعايير ما يمكن اعتباره معرفة موضوعية). وكما رأينا سابقاً فإن تطور أصالة الأدب العظيم في الغرب، بما في ذلك حكايات الجن التقليدية، كان نتاجاً للأيديولوجية الذكورية.

٤- في الوقت الذي تحدد فيه البيولوجيا نوع الجنس (sex) (ذكراً أو أنثى) فإن الثقافة تحدد الجنس (gender)(مذكراً أو مؤنثاً). فكلمة جنس لا تشير بالنسبة للنسويين المتحدثين بالإنجليزية إلى تركيبنا البنيوي، وإنما إلى برمجة سلوكنا اجتماعياً رجالاً ونساءً. فأنا أتصرف بوصفي "امرأة" (بخضوع، على سبيل المثال)، ليس لأن هذا طبيعي بالنسبة لي، وإنما لأنني عُلّمت أن أقوم بذلك. وفي الحقيقة إن كل الصفات التي نربطها بالسلوك المذكر أو المؤنث مكتسبة وليست موروثة.

٥- إن كل النشاط النسوي، بما في ذلك النظرية النسوية والنقد الأدبي النسوي، يهدف في النهاية إلى تغيير العالم عن طريق نشر المساواة للمرأة. وهكذا يمكن النظر إلى جميع النشاطات النسوية كشكل من "الحراك"، رغم أن كلمة الحراك تطلق عادة على النشاط النسوي الذي يدعو إلى التغيير الاجتماعي من خلال النشاط السياسي كالتظاهرات الجماهيرية، والمقاطعات، وتسجيل المنتخبين وتثقيفهم، وتأمين خطوط ساخنة لضحايا الاغتصاب، ومأوى للنساء اللواتي يتعرضن للاعتداء وما شابه ذلك. ورغم أن النسويين غالباً ما يصورون خطأً على أنهم معادون لقيم الأسرة، فإنهم يستمرون في قيادة النضال من أجل سياسات أفضل للأسرة كالتغذية، والصحة للأمهات والأولاد، وإجازات الأمومة، والرعاية اليومية ذات القيمة العالية وبكلفة ممكنة.

٦- إن قضايا الجنس (gender) تؤدي دوراً في كل جوانب النتاج الإنساني والتجربة الإنسانية بما في ذلك إنتاج الأدب، سواء كنا متيقظين لهذه القضايا أم لا.

وبالطبع فإن هذه الافتراضات التي جرى تعدادها هي أفكار متصلة؛ ببعضها ببعض ومتداخلة، وتعني معاً أن للأيديولوجية الذكورية تأثيراً عميقاً أو مفسداً في طريقة تفكيرنا وحديثنا والنظر إلى أنفسنا وإلى العالم الذي نعيش فيه. إن انحراف الأيديولوجية الذكورية يثير أسئلة هامة بالنسبة للنظرية النسوية، فمثلاً إذا كانت الأيديولوجية الذكورية تؤثر على ذواتنا وتجاربنا بهذه القوة، فكيف يمكننا تجاوزها؟ وإذا كانت أساليب تفكيرنا ولغتنا ذكورية، فكيف يمكننا أن نفكر أو أن نتحدث على نحو مختلف؟ وبتعبير آخر إذا كان نسيج حياتنا ذكورياً، فكيف يمكننا أن نكون غير ذكوريين؟

تجاوز السلطة الذكورية

احتار النسويون كثيراً أمام مشكلة تجاوز البرمجة الذكورية، وقدموا حلولاً كثيرة ومتنوعة. فمثلاً أحد الطرق للتعامل مع وقوعنا في فخ الأيديولوجية الذكورية، هو التفكير بإمكانية عدم نجاح أية أيديولوجية في برمجة كل الناس وفي كل الأوقات. فلكل أيديولوجية نقاط تناقض وانعدام للمنطق تساعدنا في فهم عملياتها وتقليل تأثيرها، كما قامت ماري ولستونكرافت Mary Wollstonecraft بمقاومة الأيديولوجية الذكورية في (١٧٩٢) عندما كتبت "الدفاع عن حقوق المرأة" A Vindication of the Rights of Women وكما قاومت فيرجينيا وولف Virginia Woolf هذه الأيديولوجية في (١٩٢٩) عندما كتبت "غرفة خاصة" A Room of One's Own وكما قاومتها سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir في (١٩٤٩) عندما كتبت "الجنس الثاني" The Second Sex وكما يستمر منظرو النسوية في مقاومة هذه الأيديولوجية اليوم. وربما تبرز صعوبة التنظير للخروج من الأيديولوجية الذكورية عندما نفكر بانغماسنا بها على أنه إما وضع انغماس كلي أو انعدام لهذا الانغماس، أي إذا لم نستطع تجاوز الذكورية فإننا مبرمجون ذكورياً بشكل كامل. وأعتقد أن من الأفضل النظر إلى علاقتنا بالأيديولوجية الذكورية كظرف متغير: فعلينا أن نعمل باستمرار لفهم الطرق المختلفة التي تقوم بها الذكورية بتشكيل حياتنا ومقاومتها، رغم أننا لا نرى الطرق التي تنفذ بها ذلك دائماً. فسنتحرك قدماً، أفراداً ومجتمعات، في بعض المجالات بينما سنبقى ساكنين وفاتري الهمة في مجالات أخرى. ولكن يجب أن نستمر في التقدم—لكي نفهم ونقاوم الأيديولوجية الذكورية -أينما وكلما استطعنا.

وبسبب الصعوبات المتضمنة في مقاومة البرمجة الذكورية، يعتقد كثير من المنظرين والنقاد الأدبيين النسويين، أننا يجب أن نتوخى الحذر في استخدام أطر هي نفسها ذكورية كالتحليل النفسي والماركسية. فهذه الأطر

تعتبر ذكورية لأنها تجسد عناصر مختلفة من الأيديولوجية الذكورية. فعلى سبيل المثال، اعتقد فرويد، لأنه كان يعتبر تجربة الذكر معياراً تُقاس حسبه تجربة الأنثى، أن النساء كن يعانين مما سماه "حسد القضيب"، وأنهن يرين في أول ذكر يولد لهن "بديلاً عن القضيب" للتعويض عن النقص عندهن. ورغم أن إضاءات ماركس حول الطرق التي تحدد فيها القوى الاقتصادية حياة الجنسين، فإنه فشل في إدراك الطرق التي قام فيها الرجال باضطهاد النساء بغض النظر عن طبقتهن الاقتصادية.

ورغم هذا يستخدم كثير من النسويين عناصر من نظرية التحليل النفسي والماركسية ومن النظريات النقدية الأخرى لأنهن يجدنها مفيدة في دراسة القضايا التي تتصل بتجربة النساء. فيمكن مثلاً استخدام التحليل النفسي لمساعدتنا في فهم آثار الأيديولوجية الذكورية وسبب وكيفية تشرب كل من الرجال و النساء لها. كما يمكن استخدام الماركسية لمساعدتنا في فهم كيفية قيام القوى الاقتصادية في استغلال القانون الذكوري والعرف الذكوري لإبقاء النساء مضطهدات اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً باعتبارهن طبقة متدنية. كما يمكن استخدام مبادئ البنيوية لدراسة نقاط التشابه الأساسية بين تجارب النساء وإنتاجهن من ثقافات متعددة، بالإضافة إلى التشابهات الأساسية في الطرق التي يجري فيها اضطهادهن. كما يمكن استخدام التفكيكية لإيجاد الطرق التي يعزز فيها عمل أدبي الأيديولوجية التي يقوم بنقدها، الأمر الذي كان يمارسه بعض النقاد الأدبيين النسويين في أمريكا قبل أن تصل النظرية التفكيكية إلى الشواطئ الأمريكية.

فالتفكيكية، والتي سنناقشها في الفصل الثامن، تساعدنا، بالإضافة إلى أمور أخرى، في فهم تفكيرنا عندما يكون مبنياً على تعارضات خاطئة، أي مبنياً على الاعتقاد بأن فكرتين أو صفتين أو مفهومين هما قطبان متعارضان – مثل الحب والكره والخير والشر – عندما لا يكونان كذلك في الواقع. وهكذا فإن التفكيكية مفيدة أيضاً للنسويين لمساعدتنا في تفهم الطرق التي غالباً ما تقوم فيها الأيديولوجية الذكورية على تعارضات كاذبة، فمثلاً لتفنيد الاعتقاد المتحيز جنسياً بأن الرجال بالطبيعة أكثر عقلانية، وأن النساء بالطبيعة عاطفيات، يمكن للنسوية بأن تجادل بأن النساء قد جرى برمجتهن ليكن أكثر عاطفية أو أن المفهومين منطبقان بشكل متساوٍ على الجنسين. وباستخدام المبادئ التفكيكية يمكن للنسوية أن تجادل بأننا نخطئ إذا قسمنا العقلاني والعاطفي إلى مفاهيم متعارضة بشكل تام. أليست إسبابنا المنطقية لتبنّي نظرة فلسفية أو إطار نظري مبنية بشكل شعوري أو لا شعوري على كيفية شعورنا بواسطة تلك النظرة أو ذلك الإطار؟ ألا يعمل العاطفي والعقلاني، المفهومان بشكل صحيح، غالباً بشكل ترادفي في حياتنا؟

وفي رأيي أن إحدى نقاط قوة النسوية هي الحرية التي تستعير بها الأفكار من النظريات الأخرى وتكيفها لحاجاتها المتطورة بشكل سريع. و من الأسباب التي تجعلني أعتقد أن النظرية النسوية لن تستهلك أبداً، هو أنها

ستُدخل وباستمرار أفكاراً جديدة من مجالات أخرى، وستجد طرقاً جديدة لاستخدام الأفكار القديمة. ولهذا يمكن النظر إلى النسوية على أنها نظرية عابرة للاختصاصات، وبإمكانها أن تساعدنا في تعلم إقامة علاقات بين مدارس الفكر التي تبدو متفرقة. وفي الوقت الذي تتقاطع فيه النظريات التي يناقشها هذا الكتاب متداخلة مع بعضها بطرق شتى، فإن القليل منها يعترف بهذه الحقيقة أو يستخدمها لتوسيع أو تعميق مدى استكشافاته النظرية إلى الدرجة التي تقوم بها الحركة النسوية .

وبالطبع فإن مسألة كيفية تجاوزنا لأيديولوجية معينة تسيطر على طريقة تفكيرنا، هي مسألة متعلقة بأية نظرية تهدف لأن تكون جديدة، الأمر الذي يعني أنها مسألة تخص كل النظريات، رغم أن قليلاً منها يعالج هذه المسألة. وفي الواقع فإن كثيراً من المشاكل النظرية غير القابلة للحل التي يتابع المفكرون النسويون التعامل معها هي مشاكل غير قابلة للحل تبعاً لكل نظرية، ومع ذلك يستمر الممارسون في هذه المجالات في عدم الاعتراف بها أو في اعتبارها قد حُلت بواسطة المفكرين السالفين. فمثلاً هناك علاقة بين مسألة إمكانية (أو استحالة) تخطي أية أيديولوجية تسيطر على طريقة تفكيرنا و بين مسألة الذات: أي ذات الشخص وطريقته التي ينظر بها إلى نفسه وإلى الآخرين، والتي تتطور من تجاربه الفردية. وإذا اعتبرنا أنه لا يمكننا أن نعي كل الطرق التي تحدِد فيها ذاتنا كيف نفسر العالم، فكيف يمكننا أن نعرف أن تخميناتنا عن التجربة الإنسانية أو عن أي شيء آخر هي أكثر من تعبيرات عن ذواتنا؟

وكما سنرى في الفصول القادمة فإن التفكيكية والتأريخية الجديدة تتعاملان مع هذه المسألة، ولكن معظم النظريات الأخرى لا تفعل ذلك. فبالنسبة للنسوية، كما هو الحال بالنسبة للتفكيكية والتاريخية الجديدة، تعتبر جميع عمليات الإدراك، وكذلك كل أعمال التفسير، ذاتيةً بشكل لا مفر منه. وليس بإمكاننا ترك ذواتنا خارج الصورة عندما نصف ما نرى لأن ما نراه هو نتاج لمن نكون نحن: جنسنا، وسياستنا، ودِيننا، وعرقنا، وطبقتنا السياسية والاجتماعية، وتوجهاتنا الجنسية، وتربيتنا، وخلفيتنا الأسرية، ومشاكلنا، ونقاط قوتنا وضعفنا، وإطارنا النظري وهكذا. ومجرد ادعائنا بأننا موضوعيون، كما تشجع الذكورية الرجال أن يكونوا، هو محض منع لأنفسنا من رؤية الطرق التي لا نكون فيها كذلك.

ومن وجهة نظر نسوية، عندما نفسر النصوص أو أي شيء آخر، فالطريقة التي نتعامل فيها مع ذواتنا هي ليست محاولة لتجنبها، وإنما لنكون واعين لذلك قدر الإمكان لكي يكون الآخرون قادرين على أخذ ذلك بعين الاعتبار عندما يقيّمون وجهات نظرنا. ولذلك فمن المناسب بشكل خاص أن أشير في هذا الفصل، كما يمكنكم أن تلاحظوا، إلى تجربتي الخاصة وإلى تحيزاتي. إن تجربتي باعتباري امرأة متوسطة العمر، من الطبقة المتوسطة، وسوية جنسياً وأمريكية بيضاء أحمل شهادة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي ومن أسرة مفككة، هي تجربة يتحتم عليها أن

تؤثر على تفسيري للنسوية وعلى قراءتي النسوية لرواية "جاتسبي العظيم" التي سأقدمها في نهاية هذا الفصل. فلا مفر من رؤيتي لبعض الأمور بشكل مختلف عن أصحاب النظريات والنقاد الأدبيين الآخرين، ويمكن تفسير كثير من هذه الاختلافات باستخدام البيانات الشخصية التي ذكرتها آنفاً. فبمعرفة القليل عني، آمل أن ينظر القراء إلى وجهة نظري كما هي: أي ما أراه من حيث أقف.

النسوية الفرنسية

لقد قدمت النسوية الفرنسية استراتيجيات إضافية لتخطي الذكورية. و النسوية الفرنسية متنوعة شأنها في ذلك شأن النسوية الأمريكية :فهي تتألف من وجهات نظر مختلفة متعددة .وكحال النسوية الأمريكية، تؤمن النسوية الفرنسية بأهمية الحراك الاجتماعي والسياسي لضمان الفرص المتساوية والوصول المتساوي إلى العدالة بالنسبة للنساء. وننظر الآن باقتضاب إلى النسوية الفرنسية باعتباره وحدة منفصلة لأن النسويين الفرنسيين كانوا يميلون إلى التركيز بقوة على الجوانب الفلسفية لقضايا النساء أكثر مما يفعله النسويون البريطانيون والأمريكيون رغم أن النظرية النسوية الفرنسية قد أصبحت مع مرور الوقت ذات وجودٍ ملحوظٍ متزايد في النسوية الأنجلوأمريكية.

وبشكل عام، فإن النسوية الفرنسية قد تركزت في شكلين مختلفين: النسوية المادية، ونسوية التحليل النفسي. ويهتم الشكل الأول بالاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي للمرأة، بينما يركز الشكل الثاني، كما هو متوقع، على تجربة المرأة النفسية. ورغم أن هذين المنهجين لتحليل تجربة النساء في الثقافة الذكورية يتضادان بشكل ملحوظ فإن النسويين الفرنسيين مهتمون بالطرق التي تترابط فيها التجارب الاجتماعية الاقتصادية والنفسية للمرأة. ولكن دعونا الآن نتحدث عن هذين الشكلين بشكل منفصل. فإذا استطعنا الحصول على فكرة واضحة بعض الشيء عن كل بها سنرى بسهولة الطرق التي يكمل كل واحد منهما الآخر ويتضاد معه.

تبحث النسوية الفرنسية في التقاليد الذكورية والمؤسسات التي تتحكم بالظروف المادية والاقتصادية التي يضطهد المجتمع بواسطتها الناس كالمعتقدات الذكورية عن الفرق بين الرجال والنساء والقوانين والأعراف التي تحكم الزواج والأمومة. ورغم أن سيمون دي بيفوار لم تشر إلى نفسها باعتبارها نسوية مادية، إلا أن كتابها "الجنس الثاني" (١٩٤٩) الذي اكتشف آفاقاً جديدة شكّل أساساً نظرياً للنسويين الماديين لعدة عقود. وتلاحظ دي بيفوار أن الرجال يعتبرون في المجتمع الذكوري كائنات أساسية (ذوات مستقلة بإرادة حرة) بينما تعتبر النساء كائنات شرطية (موجودات غير مستقلة تتحكم بها الظروف). و يستطيع الرجال أن يؤثروا في العالم وأن يغيروه وأن يعطوه معنى بينما تكتسب النساء المعنى فقط عن طريق علاقتهن بالرجال. وهكذا تعرَف النساء ليس فقط باختلافهن عن الرجال، بل بعدم كفاءتهن مقارنة بالرجال. ولهذا تحمل كلمة "امرأة" مضامين كلمة "الآخر". فالمرأة لا تكون

شخصاً لوحدها، وإنما هي الآخر بالنسبة للرجل: فهي أقل من الرجل. وإلى درجة ما هي غريبة في عالم الرجال، وليست إنساناً متطوراً بشكل كامل كما هو حال الرجل.

لقد عبرت بيفوار، التي كانت أول من جادل بأن المرأة لا تولد مؤنثة وإنما يتم تكييفها لتكون كذلك بواسطة الذكورية، عن الفكرة التي تسمى الآن التشكيل الاجتماعي، كما ذكرنا سابقاً في هذا الفصل، عندما قالت كلماتها الشهيرة: "المرأة لا تولد امرأة، وإنما تصبح امرأة" (مقتبس في موي Moi ٩٢). وبالفعل تجادل بيفوار، خلافاً لادعاءات الذكورية المضادة، بأن النساء لا يولدن بغريزة أمومة. فالغريزة شيء يمتلكه كل الأفراد في سلالة معينة كجزء من تركيبهم البيولوجي الطبيعي بينما لا تريد كل النساء إنجاب الأولاد، ولا يشعرن بالراحة لكونهن أمهات. ومع هذا تخبرهن الذكورية بأنهن لن يشعرن بتحقيق ذواتهن إذا لم ينجبن الأولاد، وهناك ضغط هائل يمارس على النساء لتجنيدهن للأمومة. فكيف يمكننا أن نعرف ماذا تكون المرأة حسب الطبيعة إذا كنا لا نراها خارج تكييف الذكورية لها اجتماعياً.

وتؤكد بيفوار أنه لا ينبغي للنساء أن يشعرن بالرضا حول استثمار معنى حياتهن في حياة أزواجهن وأولادهن كما تشجعهن الذكورية أن يفعلن. وكما تلاحظ جينيفر هانسن Jennifer Hans "تعتقد بيفوار وبقوة أن الزواج قد أبطأ الحرية والنمو الفكري للنساء، وأوقعهما في فخ"(٢). وتزعم بيفوار أن النساء عندما يسخّرن أنفسهن بشكل كامل لإنجازات أزواجهن وأبنائهن، فإنهن يحاولن الهروب من حريتهن لتحقيق ما يمكن أن ينجزن في العالم، فهن يحاولن تجنب هذه الحرية لأنها مخيفة: فهي تتطلب المسؤولية الشخصية بينما لا تقدم أية ضمانة للنجاح أو السعادة. وتقترح بيفوار أنه "إذا ظهرت المرأة ككائن غير أساسي ولن يصبح أساسياً على الإطلاق فهذا بسبب أن المرأة نفسها تفشل في تحقيق هذا التغيير" (١٠).

فلماذا يصعب جداً على النساء التعرف على إخضاعهن، إن لم نقل فعل شيء حول هذا الإخضاع؟ تشير بيفوار إلى أن النساء لسن كالمجموعات الأخرى المضطهدة — على سبيل المثال الطبقات المضطهدة والأقليات الدينية والعرقية المضطهدة — فلا يوجد سجل تاريخي لثقافة نسائية مشتركة أو تقاليد مشتركة أو اضطهاد مشترك. وبهذا المعنى فقد مُحين من التاريخ، ولم يجري اعتبارهن موضوعاً يستحق الدراسة. وتضيف بأن النساء

> يفتقدن إلى وسائل ملموسة لتنظيم أنفسهن ضمن مجموعة...فليس لديهن ماض (جماعي ومسجّل) ولا دين خاص بهن، بل يعشن متفرقات بين الذكور، يربطهن السكن والعمل المنزلي والوضع الاقتصادي والمكانة الاجتماعية، مع رجال معينين — آباء أو أزواج — كلها أقوى من ارتباطهن بنساء أخريات. (١١)

وبتعبير آخر، فإن ولاء النساء للرجال من الطبقة الاجتماعية نفسها أو من العرق نفسه أو من الدين نفسه يتجاوز ولاءهن للنساء من الطبقات الاجتماعية الأخرى، أو الأعراق الأخرى أو الأديان الأخرى. وفي الحقيقة، فإن ولاء النساء للرجال يتجاوز أيضاً ولاءهن للنساء من الطبقة الاجتماعية التي ينتمن إليها وكذلك الحال عند وحدة العرق والدين أيضاً.

وتقدم كريستين دلفي Chritine Delphy ، وهي إحدى المفكرات اللائي تأثرن ببيفوار، نقداً نسوياً للذكورية مبنياً على أسس ماركسية. وتركز دلفي، التي صاغت مصطلح "النسوية المادية"في بداية السبعينيات، تحليلها على الأسرة باعتبارها وحدة اقتصادية. وتشرح بأنه كما تضطهد الطبقات العليا في المجتمع كل الطبقات الدنيا، فإن النساء في أسرهن تابعات. وهكذا تشكل النساء طبقة مضطهدة منفصلة مبنية على أساس اضطهاد النساء بغض النظر عن الطبقة الاقتصادية والاجتماعية التي ينتمين إليها. وعقد الزواج، عند دلفي، هو عقد عمل يربط المرأة بالعمل المنزلي غير المأجور الذي يطلق عليه عادة تسمية "العمل المنزلي" الذي تجعله يبدو سخيفاً، والذي لا يعتبر مهماً بما يكفي لتحليله بشكل جدي بوصفه موضوعاً أو موضوعاً أو مشكلة بحد ذاتها .وتلاحظ بأن فهم مضامين هذا الوضع أمر مركزي لفهم اضطهاد النساء، وتشير إلى أن :

> [كافة] المجتمعات "المتطورة" المعاصرة تعتمد على عمل النساء غير المأجور في الخدمات المنزلية ورعاية الأطفال . فهذه الخدمات تقدم في سياق علاقة معينة مع فرد ما (الزوج). ويجري استبعادها من عالم التبادل [أي أن هذه الخدمات لا تعامل معاملة الوظائف التي يقوم بها الناس مقابل المال خارج بيوتهم]، ولذلك فهي بدون قيمة. إنها غير مدفوعة. ومهما تتلقى النساء من مقابل فهو مستقل عن العمل الذي يقمن به لأنه لا يعطى مقابل العمل [أي كأجرة بجعلهن العمل مستحقات له] ولكن على سبيل هدية. والتزام الزوج الوحيد، الذي هو مصلحة له بشكل واضح، هو تأمين حاجات زوجته الأساسية. بتعبير آخر المحافظة على قدرتها على العمل. (٦٠)

وبالإضافة إلى ذلك تؤكد دلفي أن العمل المنزلي للنساء غير مدفوع، و ذلك ليس بسبب عدم أهميته أو لأنه يتطلب وقتاً أو جهداً أقل ولكن لأن الذكورية تعرِف النساء في أدوارهن المنزلية على أنهن غير عاملات. وغير العاملات يجب أن لا يتوقعن بالطبع أن يدفع لهن. وبالمفارقة، كما تلاحظ دلفي، تظهر كل الأدلة الأنثروبولوجية وعلم الاجتماع "أن الطبقات المهيمنة تجعل الطبقات التي تسيطر عليها تقوم بالعمل المنتج – أي أن الجنس البارز يقوم بعمل أقل" (٦١). أي أن النساء يقمن في المجتمع الذكوري بأعمال المنزل التي لا يريد الرجال القيام بها، ويكون طول نهار عملهن أربعاً وعشرين ساعة. وهكذا عند جمع عدد ساعات عمل المرأة نجد أن النساء يعملن ساعات أطول من الرجال. إلا أن عملهن في المنزل لا يُعترف به بوصفه عملاً حقيقياً يستحق الأجر. وتجادل دلفي بأنه من غير المفاجئ إذا أردنا أن نفهم أي شيء عن السلوك الجنسي أو الجنس فإنه يجب أن نفهم أولاً أن العلاقات بين الرجال والنساء مبنية على القوة: فالرجال الذكوريون يريدون أن يحتفظوا بالقوة كلها، وتريد النساء غير الذكوريات أن يتم توزيع القوة بالتساوي. إن تحليل دلفي متصل بحياة النساء الأمريكيات اليوم بشكل خاص لأن كثيراً من الزوجات الأمريكيات لهن وظائف خارج المنزل بينما لا يزلن يقمن بحصة الأسد من أعمال المنزل وتربية الأولاد.

دعونا نُلْقِ نظرة على أعمال كوليت جيلومين Colette Guillaumin في مثالنا الأخير عن الفرنسية المادية. تلاحظ جيلومين أنه يتم تعريف الرجال والإشارة إليهم بشكل رئيس بناء على ما يقومون به، أي حسب قيمتهم في المجتمع أعضاء في القوة العاملة وصانعين للقرار وهكذا. ويجري تعريف النساء والإشارة إليهن بشكل رئيس حسب جنسهن. وتلاحظ جيلومين من العبارات التي جمعتها في فترة واحدة دامت ٤٨ ساعة، "أن مجموعة تلتقي لإعطاء آرائها حول مسألة ما تتشكل من: مدير شركة، وعامل مخرطة، ومدير لعبة قمار [شخص يدير طاولة قمار في كازينو] وامرأة" (٧٣). وتتحدث جيلومين بشكل مشابه عن زعيم عالمي يناقش وضع نظام قمعي يعارضه فيقول: "لقد قتلوا عشرات الآلاف من العمال والطلاب والنساء" (٧٣). وبعبارة أخرى تلاحظ جيلومين أن النساء، من حيث وظيفتهن في المجتمع، "هن ... بشكل أساسي نساء" (٧٣). وهذا يعني بالنسبة لجيلومين أنهن سلعة بشكل أساسي . سلعة يمكن مقايضتها" أو "إعطاؤها" في الزواج (حسب الثقافة التي ينتمين إليها).

وتجادل جيلومين بأن الشكل الرئيس لاضطهاد النساء الذي يظهر وظيفتهن باعتباره سلعة هو الاستحواذ، وتشرح بأن القضية ليست مجرد استغلال للمرأة، كما يعلم الجميع، في سوق العمل (إذ تتقاضى مثلاً أجراً أقل للقيام بالعمل نفسه الذي يقوم به الرجال)، وفي البيت حيث لا تتقاضى شيئاً مقابل عملها بشكل عام. بل تضطهد النساء بما تسميه جيلومين "الاستحواذ الجسدي المباشر "وتعني به" الانحطاط بالمرأة إلى رتبة الأشياء المادية" (٧٤) الأمر الذي تقارنه بالعبودية والقنانة. وتسمي جيلومين هذا الاستحواذ في حالة المرأة "العبودية على أساس الجنس" sexage. ويأخذ هذا، كما تعتقد، أربعة أشكال رئيسة: (١) الاستحواذ على وقت المرأة، (٢) الاستحواذ على إنتاج أجساد النساء، (٣) التزام المرأة الجنسي، (٤) التزام المرأة برعاية أي فرد في الأسرة لا يستطيع أن يرعى نفسه، بالإضافة إلى رعاية الذكور السليمين في الأسرة.

دعونا ننظر بشكل مقتضب إلى كل واحد من أشكال الاستغلال القائم على الجنس. فكما تلاحظ جيلومين (١) لا يضع عقد الزواج قيوداً للوقت الذي يجب فيه على الزوجات (أو أية نساء أخريات في الأسرة كالبنات، والعمات، والخالات، والجدات) أن يعملن، ولا يخصص أي عطَل لا يعملن خلالها. (٢) في بعض الثقافات يبيع أفراد الأسرة الذكور شعر النساء وحليهن، كما يحدد الذكر عدد الأولاد الذين ينجبهما الزوجان. ويبقى الأولاد ملكاً شرعياً للزوج. (٣) إن التزام النساء جنسياً نحو الرجال يحدث من خلال الزواج والبغاء. والفرق الرئيس بينهما، عند جيلومين، هو في القيود الموضوعة على استخدام الرجل للمومسات، وأنه يجب أن يدفع للأفعال الخاصة التي يريد. (٤) ورغم أن العناية بالرضع، والأطفال، وكبار السن، والمرضى يقوم بها أحياناً عمال مأجورون (يكونون عادة من النساء) فإن الغالبية الساحقة من هذه الأعمال يقوم بها أفراد الأسرة من الإناث، وفي بعض الثقافات يقوم بها عمال دينيون غير مأجورين، كالراهبات. والأثر الكلي لهذه المناطق الأربع من الاستحواذ هو

تجريد النساء من الإحساس بفرديتهن ومن استقلالهن وسيادتهن. وباختصار فالنساء،كما تعبر عن ذلك جيلومين، "أداة اجتماعية مخصصة للمهام"(٧٩) التي لا يريد أن يؤديها الرجال.

وخلافاً للنسوية المادية، تهتم نظرية التحليل النفسي النسوي بأثر الذكورية في التجربة النفسية للنساء وفي إبداعهن. فتركيزه على النفس المفردة، وليس على تجربة المجموعة. ولأن اضطهاد المرأة غير مقصور على المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فهو يتضمن القمع النفسي وعلى مستوى اللاوعي أيضاً .وإنه هنا، في السيكسولوجيا الشخصية لكل امرأة، حيث يجب أن تتعلم المرأة تحرير نفسها إذا كان لتحررها المادي أن يُبنى على أساس ثابت. هذا لأن المرأة لا يمكن تحريرها بطريقة فاعلة إذا لم تكن على علم بأنها تحتاج إلى أن تتحرر. وبالنسبة لكثير من نسويي التحليل النفسي الفرنسيين، يجب دراسة إمكانات التحرير في المكان الذي يكثر فيه إخضاع المرأة، إن لم يكن يعمه، وهو اللغة. ففي اللغة يجري استبعاد أفكار الذكورية الضارة عن "الفرق الجنسي" sexual difference (ما تعتقده الذكورية فروقاً بين النساء والرجال موروثة وأساسية) كما يجري الاستمرار في إفراز هذا التأثير الاضطهادي.

وترى إيلين سيكسو Hélène Cixous أن اللغة تكشف عما تسميه "التفكير الثنائي للذكور"، والذي يمكن تعريفه على أنه رؤية للعالم على شكل متضادات قطبية، يعتبر أحدها متفوقاً على الآخر. وأمثلة على ذلك تشمل التضادات الثنائية الذكورية عن العقل/القلب ،والأب/ الأم ،والثقافة/ الطبيعة، والمفهوم/المحسوس (ما يمكن فهمه بطريق الذهن مقابل ما يمكن تحسسه عن طريق الجسد) والشمس/ القمر، و النشاط/ الخمول. إن تضادات كهذه تنظم الطريقة التي نفكر بها، وعند كل تضاد تسأل سيكسو "أين المرأة؟" (٩١). بمعنى أي جانب من هذه التضادات يفترض أن تُعرف من خلاله بعض جوانب الأنثى؟ ومن الواضح أن المرأة تحتل حسب التفكير الذكوري الجانب الأيسر من هذه التضادات – الجانب الذي تعتبره الذكورية دونياً –القلب، الأم، الطبيعة، المحسوس، القمر، والخمول– بينما يفترض أن الذكر معرف بالجانب الأيمن من كل تضاد، الجانب الذي تعتبره الذكورية متفوقاً: العقل، الأب، الثقافة، المفهوم، الشمس والنشاط .وتلاحظ سيكسو "بأنه يجري التعامل تقليدياً مع مسألة الاختلاف الجنسي عن طريق إقرانها بتضاد النشاط / الخمول " (٩٢). وبتعبير آخر، يعتقد التفكير الذكوري بأن النساء يولدن ليكن ساكنات، بينما يولد الرجال ليكونوا نشطين لأنه من الطبيعي أن يكون الجنسان مختلفين بهذه الطريقة. وهكذا إذا لم تكن المرأة ساكنة فهي ليست امرأة. وبالطبع يتبع هذا كون النساء خاضعات للرجال، وأن الرجال بطبيعتهم قادة، وهكذا.

بالنسبة لسيكسو، لن تتعلم النساء مقاومة التفكير الذكوري عن طريق كونهن جزءاً من بنية القوة الذكورية، أي بالحصول على مكانة وفرص متساوية في المجتمع الذكوري المعاصر. فاكتساب النساء القوة في النظام

الاجتماعي السياسي القائم لن يغير النظام بشكل مناسب. وفي الحقيقة ستكون النتيجة أن تصبح النساء أكثر شبهاً بالرجال الذكوريين لأنهن سيتعلمن التفكير كما تعود الرجال الذكوريون أن يفكروا. وبدلاً من ذلك، تعتقد سيكسو أن النساء بوصفها مصدراً للحياة هن مصدر القوة والطاقة. ولذلك نحتاج إلى لغة نسوية جديدة تقوض أو تقضي على التفكير الثنائي للذكورية الذي يضطهد النساء ويسكتهن. وتعتقد سيكسو أن اللغة الأفضل تعبيراً عن ذاتها في الكتابة هي "الكتابة النسائية" feminine writing. فهي منظمة بانسياب ومترابطة بحرية. كما تقاوم الأساليب الذكورية في التفكير والكتابة التي تتطلب أساليب "صحيحة" مفروضة للتنظيم وقواعد عقلانية للمنطق (المنطق الذي يبقى "فوق الرقبة"، باعتماده على التعاريف الضيقة للتجربة الإدراكية والانتقاص من التجارب العاطفية والحدسية) والتفكير بخط واحد (الهاء تسبق الواو، و الواو تسبق الياء).

ورغم أن الارتباطات المطولة للنساء مع أمهاتهن، أي مع المصدر الأصلي لقوتهن وطاقتهن، قد أعطتهن علاقة مميزة بالكتابة النسائية، فإنه بإمكان الرجل الذي يستطيع أن يتواصل مع هذا الارتباط المبكر مع أمه أن ينتج مثل هذه الكتابة .وتذكر سيكسو مثالاً على هذا النوع من الكتابة أسماء كتّاب مثل مارجريت دوراس Marguerite Duras ، وجان جينيت Jean (John) Genet ، والكاتبة البرازيلية كلاريس ليسبكتر Clarice Lispector. ويمكنني أن أخمن أن أعمال مثل "المحبوبة" Beloved لتوني موريسون Toni Morrison ، و"السيدة دالاوي" Mrs. Dalloway لفيرجينيا وولف Virginia Woolf ، و"صحوة فينيجان" Finnegan's Wake لجيمس جويس James Joyce و"أبسالوم أبسالوم" Absalom, Absalom! لوليام فوكنر William Faulkner يمكن اعتبارها أمثلة لهذه الكتابة. وترى سيكسو أن هذا النوع من الكتابة هو طريقة للتواصل (أو إعادة التواصل) بشكل تلقائي مع الحيوية المرحة وغير المقيدة للجسد المؤنث، والذي تؤكد سيكسو، كما رأينا سابقاً، أنه مصدر الحياة. وهكذا تصبح الكتابة بالنسبة إليها تجسيداً للتحرر. وربما يبدو هجران التفكير الذكوري كما يجري تصوره هنا خيالياً، ولكن كما تلاحظ توريل موي Toril Moi "لقد كان التفكير الخيالي دائماً مصدراً للإلهام عند النسويين" (١٢١).

وبطريقة مشابهة ترى لوس إيريجاري Luce Irigaray أن كثيراً من إخضاع النساء في الثقافة الذكورية يأخذ شكل القمع النفسي الذي ينفذ عن طريق اللغة باعتبارها أداةً. وبتعبير آخر تعيش النساء في عالم قد جرى فيه تحديد كل المعاني بواسطة اللغة الذكورية. فلذلك، ورغم أنهن قد لا يدركن ذلك، فإنهن لا يتحدثن باعتبارهن منشئات لأفكارهن. بل يقلدن بشكل سلبي الأفكار التي جرى التحدث بها. وهذا الوضع لا يبدو مفاجئاً، كما يمكن أن يبدو لأول وهلة عندما نأخذ بعين الاعتبار تاريخ الفكر الذكوري الغربي. وكما تلاحظ إيريجاري فالمرأة عند الفلاسفة الغربيين مجرد مرآة لرجولتهم. فلقد عرف الرجال الأنوثة حسب حاجاتهم ومخاوفهم ورغباتهم. تذكر إيريجاري مثلاً أن فرويد –رغم أنها تجد نظرياته مفيدة وحتى فاتحة لآفاق جديدة– كان يعكس الخوف الذكوري من الخصاء على النساء عندما افترض أن النساء يعانين من حسد القضيب بمعنى أنهن يشعرن بأنه قد جرى خصاؤهن. فمن الواضح

أن وجهة النظر هذه تزعم أن النساء يردن الأشياء نفسها التي يريدها الرجال، وأنه ليس لديهن مشاعر ورغبات خاصة بهن فقط. وتؤكد إيريجاري أن النساء اللواتي لا يستطعن التخلص من الذكورية لديهن خياران فقط: (١) أن يبقين ساكنات (لأن أي شيء تقوله المرأة ولا يتناسب مع منطق الذكورية سيبدو غير ممكن الفهم وبدون معنى) و(٢) أن يقلدن تمثيل الذكورية لهن كما تريد الذكورية أن تراهن (أي أن يلعبن الدور الدوني الذي يعطيه لهن تعريف الذكورية للاختلاف الجنسي الذي يقدم تفوق الرجل). ومن الواضح أن هذا خيار صعب.

وتبدو القوة الذكورية ظاهرة، عند إيريجاري، فيما يسميه كثير من المفكرين "تحديقة الذكر": فالرجل ينظر والمرأة يُنظرُ إليها. ومن ينظر يتحكم بالسيطرة، ويمتلك قوة تسمية الأشياء وتفسير العالم وقيادته. ومن يُنظر إليه —المرأة — هو مجرد شيء يُرى. وهكذا تكون النساء في الذكورية مجرد رموز وعلامات وسلعاً في اقتصاد ذكري . وبتعبير آخر، تكون وظيفة المرأة إظهار علامة الرجال برجال آخرين. فعلى سبيل المثال، الرجل الذي يشعر بأن عليه أن يمشي ممسكاً بذراع امرأة جميلة لإثارة إعجاب الناس الآخرين ليس مهتماً بإثارة إعجاب الناس الآخرين .إنه مهتم بإثارة إعجاب الرجال الآخرين .وباختصار الذكورية هي عالم الرجال: فهم يخترعون قواعد اللعبة ويلعبونها مع بعضهم ويجري العثور على النساء باعتبارهن جوائز.

ومثل سيكسو، تناقش إيريجاري بأن طريقة تجاوز الذكورية هي نفس الوسيلة التي برمجتنا في إطار الذكورية: اللغة. وتعتقد أن المجموعات النسائية الخالصة ضرورية لتطوير طرق التفكير والحديث غير الذكورية. وتسمي إيريجاري فكرتها عن لغة المرأة "المرأة تتحدث" womanspeak وتجد مصدرها في الجسد الأنثوي، وخاصة فيما تراه من اختلاف في اللذة الجنسية بين الذكور والإناث. فاللذة الجنسية المؤنثة بالنسبة إليها "أكثر تنوعاً وتعداداً في اختلافاتها وأكثر تعقيداً ودقة مما يتصور عادة" (٢٨). ولذلك فلغة "المرأة تتحدث" أكثر تنوعاً وتعدداً في المعاني وأكثر تعقيداً ودقة من اللغة الذكورية. وكما تقول ايريجاري عندما تجرؤ المرأة أن تتحدث بطريقتها "فإنها تنطلق بكل الاتجاهات تاركة [الرجل الذكوري] غير قادر على تبين الترابط في المعنى. فكلماتها متناقضة وإلى درجة ما مجنونة من وجهة نظر العقل وغير مسموعة لكل من يستمع إليها بقوالب جاهزة وشيفرة متكاملة" (٢٩). ويجد كثير من المفكرين النسويين تعريف إيريجاري— للغة "المرأة تتحدث" بشكل خاص مثيراً للجدل لأنه يعزز الأفكار النمطية عن المرأة بوصفها غير منطقية وغير عقلانية بالإضافة إلى أمور أخرى. وقد يكون من المفيد النظر إلى لغة "المرأة تتحدث" باعتبار إريجاري لا تعني، أو على الأقل هناك إمكانية قوية لكونها لا تعني، أن المرأة لا تتحدث بشكل مترابط وإنما هذا ما يبدو للناس الذكوريين المبرمجين على إعطاء المعنى فقط للغة التي تلتزم بقواعد المنطق الذكوري، أي اللغة التي تتحرك باتجاه واحد وتأخذ شكل الأطروحات.

وخلافاً لإيريجاري، لا تؤمن المحللة النفسية الفرنسية النسوية جوليا كريستيفا Julia Kristeva بالكتابة النسائية أو لغة "المرأة تتحدث" لأنها تعتقد أن أية نظرية تحدد كنه النساء (أي تحدد ما هو أساسي– موروث وبيولوجي –من الصفات للنساء) تسيء تمثيل التنوع غير المتناهي، وتتركهن عرضة للتحديد الذكوري لما هو أساسي في المرأة، كأن تكون خاضعة بطبيعتها ومفرطة بعاطفيتها وهكذا. ولا يمكن تعريف المؤنث بالنسبة لكريستيفا لأن هناك من تعاريف المؤنث بعدد ما هناك من النساء. وتؤكد كريستيفا أنه بإمكاننا معرفة ما يلي عن الأنوثة: إنها مهمشة ومضطهدة، حالها حال الطبقة العاملة المضطهدة والمهمشة.

علاوة على ذلك، ترى كريستيفا أن ما يقبله كثير من النسويين عادة على أنه فروق بيولوجية تجعل النساء إناثاً والرجال ذكوراً (تختلف عن الفروق الاجتماعية التي تفرضها الذكورية والتي تعرفنا مذكراً أو مؤنثاً) هي فروق اجتماعية أكثر منها فروقاً بيولوجية بسبب تأثيراتها الملموسة على النساء في العالم الحقيقي. وكما تقول: "إن الاختلاف الجنسي والبيولوجي والفيزيولوجي والتوالدي بين الرجال والنساء يعكس اختلافاً في العقد الاجتماعي" ("زمن المرأة" ١٨٨). وبتعبير آخر، إذا ولد الشخص ببيولوجية مؤنثة فإن مكانه في المجتمع يمنحه حقوقاً أقل – خاصة الحق في الامتلاك والتحكم بالجسد جنسياً، سواء بما يخص نوع العلاقات التي يمكن أن يحصل عليها وعددها أم بالحقوق التي تتعلق بالإجهاض وموانع الحمل – مما لو ولد ببيولوجية الذكر. وفي النهاية فالمسألة ليست كيف ينبغي تحديد الاختلاف البيولوجي، بل بأن المعاني التي يكتسبها الاختلاف البيولوجي يجري فوراً استهلاكها والظهور عليها واستبدالها من قبل المعنى (الذكوري) الاجتماعي الذي يصاحبها. وما يضطهد النساء هو المعنى الاجتماعي للاختلاف الجنسي. وهكذا بالنسبة لكريستيفا كما هو الحال مع معظم الفرنسيين النسويين – بما في ذلك النسويين الماديين الذين درسناهم سابقاً – يعتبر الفرق الذي يفترضه النسويون الأنجلوأمريكيون بين نوع الجنس (sex) و دور الجنس (gender) غير موجود. فالذكورية تعرف وتسيطر على الطريقة التي ترتبط فيها بنوع الجنس (أنثى) (sex) ودور الجنس (مؤنث) (gender) كما لو أنهما نفس الشيء. وفي الحقيقة لا يوجد في الفرنسية كلمة تقابل كلمة دور الجنس (gender) في اللغة الإنجليزية.

وبدلاً من تبني "الكتابة النسائية" ولغة "المرأة تتحدث" وسيلة لتخطي الاضطهاد الذكوري تؤكد كريستيفا أن الرجال والنساء يستطيعون تجاوز اللغة والتفكير الذكوري بمحاولة الوصول إلى مات يمكن تسميته البعد التواصلي للغة semiotic dimension of language (وهو الذي يجب أن يميز عن حقل الدراسات الذي يسمى السيميائية semiotics الذي يعتني بتحليل أنظمة الإشارات الثقافية). فبالنسبة لكريستيفا تتألف اللغة من بعدين: البعد الرمزي والبعد التواصلي. فالبعد الرمزي هو المجال الذي تعمل فيه الكلمات وتنسب إليها المعاني. وما تسميه البعد التواصلي للغة هو ذلك الجزء من اللغة الذي يتألف، بشكل مختلف، من عناصر كالتنغيم (الصوت ونغمة الصوت

وارتفاعه، وموسيقاه) والإيقاع ولغة الجسد التي تعمل عندما نتحدث، والتي تظهر مشاعرنا ودوافعنا الجسدية (مثلاً الدوافع الجسدية التي تتصل بما هو جنسي وبما يتعلق بالبقاء وهكذا). وربما يمكننا أن نقول إذاً إن البعد التواصلي يتألف من الطريقة التي نتحدث بها، كالمشاعر التي تظهر في الصوت وفي لغة الجسد عندما نتكلم. وتلاحظ كريستيفا أنه من المتوقع أن يميل الخطاب العلمي إلى اختصار الجزء التواصلي. وعلى النقيض ... في اللغة الشعرية ... يميل الجزء التواصلي نحو الهيمنة".(الرغبة في اللغة ١٣٤).

وفي الحقيقة إن البعد التواصلي هو أول "كلام" يتوفر للأطفال – أي الأصوات الكلامية والحركات الجسدية التي يقومون بأدائها – قبل أن يكتسبوا اللغة. إذ يتعلم الأطفال هذا "الكلام" من خلال تواصلهم مع الإيماءات والإيقاع والأشكال الأخرى غير الكلامية للتواصل التي ترتبط بجسد الأم. فعن طريق الجانب التواصلي للغة نبقى على اتصال مستمر مع تجاربنا السابقة للإدراك والسابقة للكلام: مع دوافعنا الغريزية ومع ارتباطاتنا المبكرة مع أمهاتنا. و تلاحظ كريستيفا أنه يجدر بالذكر أن دخولنا إلى اللغة يكبت كلاً من دوافعنا الغريزية وارتباطاتنا المبكرة مع أمهاتنا. فاللغة ميدان الذكورية التي تتحكم بالبعد الرمزي أو ببعد تشكيل المعاني. أما البعد التواصلي فيبقى خارج البرمجة الذكورية، وما لا تستطيع الذكورية السيطرة عليه بشكل كلي تكبته. وطبعاً لا تقترح كريستيفا أنه ينبغي أن نعود إلى المرحلة التواصلية للرضع بل إننا نستطيع الوصول إلى ذلك الجزء من اللاوعي لدينا حيث يوجد الجزء التواصلي من خلال الوسائل الخلاقة كالفن والأدب. فهذه أدوات توفر لنا طريقة جديدة لنتواصل مع اللغة ونتجنب الخناق الذي تفرضه الذكورية على طريقة تفكير الرجال والنساء.

وقبل أن ننهي هذا الجزء، أعتقد أنه من المهم أن نعالج مسألةً قد تكونون على علم بها أوقد لا تكونون كذلك. فعندما تستخدم عبارة النسوية الفرنسية نفكر بنوع من المواضيع التي تقع في حقل نسوية التحليل النفسي الفرنسية. ولا تخطر أعمال النسويين الماديين الفرنسية –باستثناء كتابات سيمون دي بيفوار –مباشرة على البال لأنها لم تتلق دعاية كافية في العالم الأكاديمي، كما تلقت نسوية التحليل النفسي. وهناك بالتأكيد أسباب عديدة لعدم التوازن هذا. و بالتأكيد أحد هذه الأسباب هو حقيقة أن الفرع الذي يفرز التأثير الأعظم في نشر النظرية النقدية في العالم الأكاديمي الأمريكي يميل أكثر إلى نوع التنظير التجريدي الموجود في نسوية التحليل النفسي، ولذلك رُحب به بسرعة. ولا يمكنني إلا أن ألاحظ أن ميل نسوية التحليل النفسي الفرنسية نحو التجريد قد جاء بنتائج مزدوجة. (١) فكونه صعب الفهم عند المبتدئين جعله يؤمن مكاناً لدى أساتذة الجامعات والمنظرين والنقاد الأدبيين الذين يمسكون بالقوة الأكاديمية في حقل النظرية النقدية و(٢) أدى هذا التنظير إلى جعل النسوية الفرنسية عرضة للسخرية والرفض. وهذه مفارقة إذ إن أعمال المنظرين الأمريكيين غالباً ما تكون تجريدية. وللأسف فإن الرغبة في تجاهل النسوية الفرنسية أو رفضها لا تزال موجودة ومنذ زمن طويل في كثير من الجامعات الأمريكية لدى عدد من النسويين وغير

النسويين. ومن الصحيح أن أكثر ما تقدمه نسوية التحليل النفسي الفرنسية يبدو مكتوباً بشكل أساسي لمن يملكون خلفية تعليمية لفهمه. فأحد الأسباب هو أنها تبني على أعمال مفكرين فرنسيين، مثل جاك ديريدا Jacques Derrida و جاك لاكان Jacques Lacan، و توسعها وتختلف معها. وأعمال هذين المفكرين صعبة الفهمً لغير المتمرس. فلقد جاء جاك ديريدا بمنهج تفسيري يدعى التفكيكية وجاء جاك لاكان بتفسير للتحليل النفسي الفرويدي. وتتطلب الاستفادة الكاملة من منطق هذا التفسير، فيما أعتقد، فهماً لكل من البنيوية والتفكيكية. (وإذا رغبت فبإمكانك أن تقرأ عن التحليل النفسي اللاكاني في الفصل ٢ وعن البنيوية والتفكيكية في الفصلين ٧ و ٨ على التوالي) وفي الواقع يكتب النسويون الفرنسيون، رغم أن أعمالهم أقل تجريداً من نسويي التحليل النفسي الذين درسناهم، ضمن تقليد فلسفي غير مألوف لطلاب الأدب في أمريكا .ولذلك لا تنفر عندما تقرأ أعمال النسويين الفرنسيين لوحدك لأول مرة. فمهما يكن توجههم الفلسفي فهم لا يحاولون استبعادك. و كشأن الفلاسفة الذين يبنون على أعمالهم والذين يختلفون معهم غالباً، إنهم يحاولون أن يفتحوا آفاقاً جديدة وطرقاً جديدة في التفكير. وآمل أن تتفق معي على أن تعلم التفكير بطرق جديدة مهمة تستحق الجهد رغم صعوبتها.

الحركة النسوية متعددة الثقافة

إن وعي الفرد لذاته، والذي يعتبر هدفاً نسوياً كما أشرنا سابقاً، أصبح هاماً وبشكل خاص عندما بدأت النساء البيض من الطبقة المتوسطة النسويات والسويات جنسياً اللواتي كن دائماً في مواقع القيادة الأكثر بروزاً في حركة النساء في أمريكا أخيراً بإدراك الطرق التي عكست فيها سياساتهن وممارساتهن و تجاربهن بينما تجاهلت تجارب النساء من الأعراق الأخرى والنساء المثليات والفقيرات وغير المتعلمات في أمريكا وفي بقية العالم. وبينما تخضع كل النساء للاضطهاد الذكوري فإن الحاجات الخاصة بكل امرأة ورغباتها ومشاكلها تتشكل إلى درجة كبيرة بواسطة عرقها وطبقتها الاجتماعية والاقتصادية وتوجهها الجنسي وتجربتها التعليمية ودينها وقوميتها.

و بالتأكيد لا تعمل الذكورية بنفس الطريقة في البلدان المختلفة: هناك فروق هامة بين الذكورية في الولايات المتحدة والذكورية مثلاً في الهند والمكسيك وإيران. بالإضافة إلى ذلك، وحتى ضمن حدود البلد الواحد، تؤثر الاختلافات الثقافية على تجربة النساء. ففي الولايات المتحدة لا تنفصل التجربة الذكورية للنساء غير البيض عن تجربتهن مع العنصرية (انظر الفصل ١١) ولا تنفصل التجربة الذكورية للمثليات عن تجربتهن مع التعصب للجنسانية السوية (انظر الفصل ١٠). ولا تنفصل التجربة الذكورية للنساء الفقيرات عن تجربتهن مع الطبقية (انظر الفصل ٣) وهكذا .وبإمكانك أن تتخيل العمليات المعقدة للاضطهاد في حياة النساء اللواتي ينتمين إلى ثلاثة أو أكثر من هذه التصانيف. ولذلك يجب أن يتضمن نشر "الأختية" sisterhood بين النساء – الارتباط النفسي والسياسي بين

النساء بناء على الاعتراف بالتجارب والأهداف المشتركة واحترام الفروق الفردية بينهن والانتباه إليها بالإضافة إلى التوزيع العادل للقوة بين المجموعات الثقافية المختلفة ضمن القيادة النسوية.

ولقد ساعد النسويون الأمريكيون الأفارقة بشكل خاص في الكشف عن القصور السياسي والثقافي المتأصل في إهمال التوجه العام للنسويين البيض للتجارب الثقافية المختلفة عن تجاربهم. فحلل النسويون السود الطرق التي لا يمكن فيها فهم الاضطهاد المبني على الجنس (gender) بمعزل عن الاضطهاد العرقي. ويلاحظ النسويون السود بأن الذكورية تضطهد المرأة السوداء ليس فقط لأنها امرأة ولكن لأنها امرأة سوداء، وقد اعتبر هذا التصنيف تاريخياً في أمريكا أقل قيمة من تصنيف المرأة البيضاء. واستبعدت الفكرة الفيكتورية المثالية "للمرأة الحقيقية"، بوصفها امرأةً خاضعة وضعيفة وبريئة جنسياً، وهي التي لا تزال تؤثر على التفكير الذكوري اليوم، النساء السوداوات والنساء الفقيرات من كل الأعراق اللواتي يتضمن عيشهن جهداً عضلياً شاقاً واللواتي يتعرضن للاغتصاب وللاستغلال الجنسي في أماكن العمل. ويعد هذا المنطق عاماً و قاتلاً، فالمرأة التي يضطرها وضعها العرقي أو الاقتصادي على العمل الشاق ويجعلها عرضة للمفترسين جنسياً، كان ينظر إليها على أنها ليست امرأة كما يجب، ولذلك لا تستحق الحماية من أولئك الذين يستغلونها. ويتبنى هذه النظرة كثير من الرجال البيض والسود وكثير من النساء البيضاوات. ولذلك كانت النساء السوداوات في قيد مزدوج. فلم يستطعن توقع تعاضد على أساس الجنس من النساء البيض، ولا تعاضد عرقي من الرجال السود: وهما المجموعتان اللتان يمكن التعويل على مساعدتهما.

وللأسف تستمر هذه المعضلة إلى يومنا. فيميل التوجه العام للنسويين البيض إلى تهميش النساء السوداوات بسبب عرقهن، ومع ذلك يشجعنهن على تقديم قضايا الجنس على القضايا العرقية على أساس أن النساء السوداوات يضطهدن بسبب التحيز الجنسي أكثر مما يضطهدن بسبب العنصرية، وفي الوقت نفسه يشجع مجتمع الرجال السود الذين يهمشون النساء السود بناء على الجنس، على تقديم القضايا العرقية على قضايا الجنس باعتبار أنهن يضطهدن بسبب العنصرية أكثر مما يضطهدن بسبب التحيز الجنسي. وكما تلاحظ لورين بيثيل Lorraine Bethel أن فهم هذا الاضطهاد المزدوج يشكل أساس النقد النسوي الأمريكي الأفريقي:

> يقدم النقد الأدبي للنسوية السوداء إطاراً لتحديد المشاكل الاجتماعية- الجمالية الشائعة للكتاب الذي يحاولون تشكيل أدبٍ للهوية الثقافية وسط الاضطهاد العرقي والجنسي. ويتضمن هذا الأدب تحليلاً سياسياً يمكننا من فهم الإنجازات التي لا تكاد تصدق للنساء السوداوات وتقديرها... والتي تحققت في تأسيس تقاليد فنية وأدبية من كل الأنواع وفي محاولة فهم صفات هذه التقاليد وحساسياتها. ويتطلب هذا الفهم وعياً بالاضطهاد الذي كانت هؤلاء الناقدات تواجهنه بشكل يومي في مجتمع مليء بالكره العنيف والمرتكز على بشرتهن السوداء وأجسادهن بوصفهن إناثاً. إن تطوير هذا الوعي والمحافظة عليه مبدأ أساسي للنسوية السوداء. (١٧٨)

ومن ناحية أخرى، تشعر بعض النساء السوداوات بأن النسوية تنشر التفرقة في المجتمع الأسود. ونتيجة لذلك هجر بعضهن النسوية، أو قمن بالبحث عن طريق للتوفيق بينها وبين اهتمامات المجتمع الأسود، كما فعلت أليس ووكر Alice Walker التي سمت نفسها "نسائية"(١١) womanist لأنها عملت من أجل بقاء السود ووحدتهم رجالاً ونساء، ومن أجل تشجيع الحوار والحياة الاجتماعية بالإضافة إلى تأكيد قيمة النساء وكل أصناف العمل الذي يقمن به. وبشكل مشابه تشير كارولين دينارد Carolyn Denard إلى أن كثيراً من النساء الأمريكيات الأفريقيات يظهرن اهتماماً أكثر بالقيم الثقافية النسائية الخاصة بمجموعتهن الإثنية من الاهتمام بالقيم المتعلقة بالنساء بشكل عام (١٧١). وتبني دينارد على أعمال توني موريسون لتوضيح هذا المنهج وتشرح بأن النسوية الثقافية الإثنية تعترف بالآثار الضارة للتحيز الجنسي على النساء السوداوات داخل مجتمعهن الإثني وخارجه، ولكنها "لا تدافع عن نسوية سياسية تبعد النساء السود عن مجتمعهن الإثني منعاً من اضطهادهن " (١٧٢). بالإضافة إلى ما سبق "ترحب النسوية الثقافية الإثنية بالقيم الثقافية النسائية التي طورتها النساء السوداوات رغم اضطهادهن، وربما بسبب هذا الاضطهاد" (١٧٢).

ومهما تكن الخيارات المفضلة النظرية التي يأتي بها النسويون السود إلى تحليلاتهم للأدب، فإن تحليلاتهم تظهر عادة أهمية فهم قضايا الجنس في سياق ثقافي. وبما أن لدى بعض المجموعات الثقافية أصنافاً خاصة بها من النقد الأدبي، وبما أن النساء يجدن معالجة لاهتماماتهن في أكثر من صنف، فمن المفيد أن نتوقف هنا ونتعرف على بعض هذه الأصناف.

واعتماداً على توجهاته النظرية، يمكن للنقد الأدبي الذي يهتم بقضايا النساء أن يقع ضمن تسمية واحدة أو أكثر. ومن هذه التسميات "النقد النسوي" و"النقد الأمريكي الأفريقي" (الذي يدرس أعمال كتاب أفريقيين في سياق التجربة الأمريكية الأفريقية والتاريخ والتقاليد الأدبية بالإضافة إلى أمور أخرى) ونقد المثليات، والنقد الماركسي، ونقد ما بعد الاستعمار (الذي يدرس أعمالاً ظهرت في ثقافات تطورت رداً على الهيمنة الاستعمارية مثل أعمال كتّاب من الهند التي كانت تسيطر عليها بريطانيا حتى ١٩٤٧. كما يدرس أموراً أخرى). و بالطبع ستدرس قضايا المرأة في كل نقد أدبي يركز على كاتبات من مجموعة إثنية معينة. ولذكر أمثلة لما مر فإن هناك الكاتبات الأمريكيات المكسيكيات، Chicanas والأمريكيات اللاتينيات، والأمريكيات الأصليات، والأمريكيات الآسيويات. ورغم أن كل هذه التصنيفات تعالج تجارب النساء، فلا يشار بشكل عام إلى كتابة نقدية ككتابة نسوية إلا إذا كانت وجهة النظر التي توجه التحليل نسوية. فمن الواضح أن هذه التصنيفات تتداخل، وليس من غير المعتاد أن يعتبر نقادٌ أدبيون أنفسهم هجيناً معيناً، مثلاً النقاد النسويون الماركسيون، والناقدات المكسيكيات النسويات المثليات.

دراسات الجنس والنسوية

كما رأينا في هذا الفصل، يركز التحليل النسوي على نحو كبير على الدور المتعاظم الذي يقوم به الجنس في تعريف المجتمع لكل من المذكر والمؤنث في حياتنا اليومية. فمثلاً يقدم الجنس لنا دوراً رئيساً في تشكيل ذواتنا الفردية : في كل من إدراك ذواتنا، والطريقة التي نتواصل من خلالها مع الآخرين. ويؤثر الجنس الخاص بنا على طريقة تعامل الآخرين والمجتمع كله معنا، كما يتجسد في مؤسساته كمهنة الطب، والقانون، والنظام التربوي، والممارسات الوظيفية. وبالإضافة إلى ذلك أعطت نظرية الغرابة، التي ستقرأ عنها في الفصل ١٠(النقد اللوطي والسحاقي و نظرية الغرابة) اهتماماً لقضايا الجنس خلال السنوات الماضية بطرح أسئلة حول افتراضات المجتمع السوية عن النشاط الجنسي والجنس، من ذلك افتراضه أن الذكور "مذكرون بالطبيعة " وأن الإناث "مؤنثات بالطبيعة". ويبدو منطقياً أن الجنس قد برز حقل دراسة قائماً بذاته ومخصصاً لدراسة هذه القضايا وكل المواضيع التي تتصل بالجنس. وبالفعل فلربما درست منهاجاً يسمى دراسات الجنس والنساء، أو دراسات الجنس. ويطلق الاسم الأخير على مناهج الجنس التي يكون تركيزها الأساسي على العلاقة بين الجنس والاضطهاد الذكوري للنساء.

وللوصول إلى الغاية التي ننشدها، يعد فهم بعض القضايا الأساسية التي تعالجها دراسات الجنس مفيداً وربما جزءاً لا يمكن التخلي عنه من أجل فهمنا للطرق التي تستمر فيها الاهتمامات النسوية بالتطور والتوسع. وتعتبر المواضيع التالية المتداخلة جزءاً من القضايا التي تبرز بشكل واضح في دراسات الجنس: (١) الافتراضات الذكورية عن الجنس وأدوار الجنس التي تستمر في اضطهاد النساء (٢) البدائل للطريقة الحالية التي تكوَّن فيها مفهوم الجنس مذكراً أو مؤنثاً (٣) العلاقة بين نوع الجنس ودور الجنس (بين الطرق التي تشكلت فيها أجسامنا بيولوجياً، وأدوار الجنس التي يجري تصنيفنا حسبها) و(٤) العلاقة بين النشاط الجنسي ودور الجنس (بين توجهاتنا الجنسية والطرق التي ينظر بها إلينا حسب الجنس (وطبعاً قد ناقشنا خلال هذا الفصل كثيراً من الطرق التي تستمر فيها افتراضات الذكورية عن الجنس، وأدوار الجنس باضطهاد النساء ولذلك دعونا ننظر إلى المجالات الثلاثة المتبقية.

ففي البداية، نحتاج إلى بدائل للطريقة الحالية التي نفكر بها حول الجنس، لأنها تتضمن كثيراً من المغالطات. وعلى الرغم من أن نتائج بحوث الجنس يمكن أن تكون مثل نتائج البحوث في أي حقل آخر معقدة ومتناقضة فإنها تنبهنا إلى الطرق التي تعاملنا فيها على أساس أنها حقائق مع كثير من الآراء غير المثبتة والأساطير عن الجنس. دعوني أذكر مثالين هامين بادئةً بالاعتقاد الذي أظن أن أغلبنا تبناه حول العمليات البيولوجية للتستسترون أو الهرمون الذكري.

فغالباً ما قلنا أو سمعنا ما يقال من أن الذكر الذي يظهر سلوكاً عدوانياً مبالغاً فيه أن : "لديه نسبة عالية من التستسترون". بمعنى أن السلوك العدواني لدى الذكور يعتبر عادة غريزة أكثر من كونه نتيجة للعوامل الاجتماعية

كالتربية، والعوامل النفسية المحركة في المنزل، والتعرض إلى بيئة خطرة خارج المنزل وغيرها. وإذا تم اعتبار السلوك غريزياً وجرى ربطه بالجنس، يصعب على الكثيرين منا رؤيته بطريقة مختلفة. ويبيّن روبرت إم سابولسكي Robert M Sapolsky أن دراسات مستويات التستسترون لدى الذكور قد اقتصرت فقط على إظهار أن المستويات المتزايدة للتستسترون تصاحب العنف. أي أنه لا يوجد بحث يشير إلى أن مستويات التستسترون الزائدة تسبب العنف، وإنما يفترض أنها تفعل ذلك. وفي الحقيقة يظهر بحث سابولسكي أن التستسترون لا يزيد العنف. بل "إن العنف يزيد إفراز التستسرون"(١٦). ويشير سابولسكي إلى أن "بعض التستسترون ضروري للسلوك العدواني الطبيعي"(١٧)، ولكن يبدو أن مدى ما هو ضروري واسع جداً. "فأية كمية تتراوح بشكل تقريبي من ٢٠٪ من المستوى الطبيعي إلى ضعفي المستوى الطبيعي" (١٧) تنتج كمية السلوك العدواني الطبيعي نفسها لدى الذكور. وهكذا فلو عرفنا مستوى التستسترون لكل فرد ضمن مجموعة من الذكور، فلن يمكننا توقع العنف لأن مدى ما يمكن اعتباره كمية طبيعية من التستسترون واسع جداً. ويشير سابولسكي إلى أن الكميات الزائدة من التستسترون تزيد العنف الموجود مسبقاً، (١٧) ولكنها لا تسبب العنف. وبتعبير آخر، يسمح التستسترون بحدوث العنف فقط إذا تم تحفيز العنف بواسطة "العوامل الاجتماعية والبيئة التي يحدث فيها العنف (سابولسكي ١٩).

فكما أصبح الرأي غير المبني على دليل مقبولاً على نطاق واسع بوصفه حقيقةً حول دور التستسترون في العنف لدى الذكور – وهو دور يرتبط بالنسبة للكثيرين بغريزة كون الذكر معيلاً وحامياً للمنزل– فقد أصبح الرأي الذي لا يستند إلى دليل بخصوص غريزة الأمومة لدى الإناث أيضاً مقبولاً على نطاق واسع. وأصبح من الصعب بالنسبة لكثير منا رؤيته بشكل مختلف. ولكن كما تلاحظ ليندا برانون Linda Brannon " فقد أظهر البحث في العواطف أن هناك فروقاً قليلة تتعلق بالجنس بما يخص التجربة الداخلية للعواطف." وتلاحظ أن "الفروق في الجنس تظهر في كيفية وتوقيت إظهار العواطف"(٢١٣) وليس في كيف ومتى حدث الشعور بالعواطف. وبشكل محدد، تجد برانون أن "البحث في اختلافات الجنس بما يخص الاستجابة للرضع قد أظهر اختلافات في التعبير عن الذات، وليس في القياسات الفيزيولوجية للاستجابات للرضع"(٢١٤). وهكذا "تظهر الفتيات والنساء استجابة أكثر للرضع لأنهن يعتقدن أنهن يجب أن يفعلن ذلك، ويظهر الرجال والأولاد استجابة أقل لنفس الأسباب" (٢١٤).

وبالطبع مازالت النساء أكثر اهتماماً من الرجال في رعاية الأطفال، وتقول النساء اللواتي يعتنين بالأولاد أنهن يشعرن في الوقت نفسه بسعادة غامرة وبكثير من الانزعاج في رعايتهن الأطفال. ومن المثير للاهتمام أن الرجال الذين يقضون وقتاً طويلاً في رعاية الأولاد يتحدثون عن ردود فعل مشابهة (برانون ٢١٤). وبالفعل، لقد رأى أغلبنا الميل المتزايد في الانخراط المتنامي للآباء في حياة أولادهم. وبالإضافة إلى ذلك، تذكر برانون أن "البحث يشير إلى أن مفهوم غريزة الأمومة باعتباره تفسير ذا أساسٍ بيولوجي للرعاية ليس له ما يدعمه، وأن لدى الرجال والنساء

عواطف متشابهة بما يخص التنشئة" (٢١٤). وبينما لا أحد يقول إن النساء لسن براعيات جيدات للأطفال، يكون القول الأكثر دقة أن كثيراً من الرجال والنساء جيدون في مجال العناية بالأطفال ويستمتعون كثيراً بذلك الدور. وفي نفس الوقت لن يختار كثير من الرجال والنساء ذلك الدور مهمة رئيسة في العمل المنزلي إذا توفر لهم ألا يختاروا ذلك. وباختصار إن رعاية الأطفال ليست دوراً يرتبط بشكل بيولوجي بالجنس رغم أن كثيراً من الناس كان يعتقد ذلك.

يبيّن كلا المثالين اللذين جرى تقديمهما أن الجنس تركيب اجتماعي وليس مسألة بيولوجية. فالرجال والنساء يتصرفون بطرق ترتبط بأدوار الجنس المخصصة لهم لأنهم مبرمجون اجتماعياً ليقوموا بذلك، وليس لأنه من الطبيعي أن يفعلوا ذلك. وإذا كان هناك من بُعد لدراسات الجنس أكثر قدرة على جعلنا نعيد التفكير بالطريقة التقليدية في النظر إلى الجنس فهو دراسات الجنس العابرة للثقافات. فكما تشير كل من جوان زد سبيد Joan Z. Spade وكاثرين جي فالنتاين Catherine G. Valentine "إن التغيرات والمرونة في تعاريف الجنس والتعبير عنه عبر الثقافات توضح أن نظام الجنس الأمريكي ليس عالمياً" (٥).

ويُشار إلى أن نظام الجنس الأمريكي نظام ثنائي ؛ لأنه يتألف من نوعين من الجنس، المذكر والمؤنث، مبنيين على الجنسين، الذكر والأنثى، ولأن هذين الجنسين يعتبران قطبين متضادين. ولا يوجد شيء بينهما: فأنت إما مذكر أو مؤنث لأنك إما ذكر أو أنثى وإن لم تكن هذا الجنس أو ذاك، فيجب أن يكون فيك خلل ما. ولكنه يوجد في ثقافات عديدة أخرى أنظمة جنس غير ثنائية. ومن بين الأنظمة العديدة التي وجدت في الماضي والتي لا تزال موجودة اليوم دعونا ننظر بإيجاز إلى بعض الأمثلة. دعونا ننظر بشكل محدد إلى ثقافات جنوب شرق آسيا حيث يعتبر الرجال والنساء متشابهين أكثر من كونهم مختلفين—بحيث لا يعتبرون من أجناس مختلفة حسب استخدامنا للمصطلح— وإلى الثقافات الأصلية في أمريكا حيث يوجد فيها أكثر من جنسين.

تلاحظ كريستين هيليويل Christine Helliwell مثلاً أن كثيراً من المجتمعات في جنوب شرق آسيا تؤكد على التشابهات بين الرجال والنساء أكثر من تأكيدها على الاختلافات. وفي مثالٍ على ذلك تشير إلى شعب الجيراي Gerai في إندونيسيا حيث لا يوجد إحساس بالانقسام إلى [قطبين متضادين] بين الذكورة والأنوثة. بل ينظر إلى الرجال والنساء على أنهم يمتلكون قدرات وميولاً متشابهة، [وخاصة تجاه السلوك غير المرغوب به]. ... وفي الصفة المركزية لتنشئة الأطفال، والتي ربما تكون الصفة الأكثر قيمة لدى شعب الجيراي، لا يرى هؤلاء الناس فرقاً بين الرجال والنساء. (١٢٦)

وفي الحقيقة إن الأعضاء التناسلية لرجال الجيراي ونسائهم "ينظر إليها — وبشكل صريح — على أنها متشابهة، فلها الشكل المخروطي نفسه، ضيقة عند القاعدة، وعريضة عند القمة". ويكمن الفرق ببساطة في كون الأعضاء التناسلية للنساء "داخل الجسم" بينما تكون الأعضاء التناسلية للرجال "خارج الجسم" (هيليويل١٢٧). وإذا

كان لديك صعوبة في تصور هذا التشابه، فبإمكانك تصور القضيب مماثلاً لقناة الولادة والخصيتين مماثلتين للمبيضين: وباختصار فإن التشكل العام متماثل تقريباً، ويكمن الفرق في التموضع.

وفي توضيح آخر مفيد لأوجه التشابه بين الرجال والنساء - فيما يخص العوامل المحركة للقوة في بعض الثقافات- تقدم ماريا أليكساندرا ليباوسكي Maria Alexandra Lepowsky مثالاً من شعب الفاناتيناي Vanatinai، وهي جزيرة صغيرة قرب غينيا الجديدة، "حيث تغيب أيديولوجية تفوق الذكور وتسود أيديولوجية المساواة على أساس الجنس"(١٥٠). فللرجال والنساء في هذه الثقافة حقوق متساوية فيما يتعلق بعملهم ونتاج عملهم، وفرص متساوية في الوصول إلى الثراء المادي، وفرص متساوية في اكتساب المكانة الاجتماعية. "ولا تصنف النساء ضعيفات أو دونيات. ويقدر الرجال والنساء وفقاً لصفات القوة والحكمة والسخاء" (ليباوسكي ١٢٨). وكما توضح حضارتا الجيراي وساكنو جزيرة فاناتيناي، فليس بإمكاننا أن ندّعي أن تفوق الذكور طبيعي أو عالمي- رغم أن كثيراً من الأمريكيين يدعون ذلك - ولذلك لا نستطيع أن ندّعي أن سلوك الهيمنة لدى الإنسان مرتبط بيولوجياً بالجنس.

ففي بعض الثقافات الأخرى لا تكون أنظمة الجنس ثنائية، كحال نظام الجنس في الولايات المتحدة اليوم، ولا أحادية - بمعنى أنها بدون تفريق على أساس الجنس- مثل نظامي الجنس اللذين جرى وصفهما سابقاً. وخلافاً لذلك تنظر بعض الثقافات إلى الجنس بوصفه نظاماً متعدد الإمكانات .فخذ من الأمثلة الكثيرة حال مجتمعات الهنود الحمر في أمريكا الشمالية التي تربو على المائة. فلهذه المجتمعات أنظمة جنس متعددة، أي أنظمة تتألف من أكثر من جنسين، وخاصة في الفترة التي سبقت استيلاء المستعمرين الأوروبيين على الأمريكيتين. وقد مالت المجتمعات الأصلية في أمريكا الشمالية إلى تعريف الجنس حسب طرق خاصة بثقافاتهم تختلف حسب جوانب الحياة الاجتماعية التي كانت تعتبر أساسية في مفهومهم عن الجنس. ومع ذلك اشتملت ثقافات أمريكا الشمالية الأصلية على ثلاثة أو أربعة من الأجناس التالية: (١) النساء (٢). مخالفات النساء، أو أدوار جنس مختلفة تتبناها الإناث بيولوجياً (٣) الرجال . (٤) مخالفي الرجال أو أدوار جنس مختلفة يتبناها الذكور بيولوجياً (ناندا Nanda ٦٦).

ولم يكن الجنس البيولوجي، ولا التوجه الجنسي هو العامل الرئيس في تحديد الجنس في المجتمعات الأصلية في أمريكا. بل قدمت الاهتمامات المهنية والأهداف دوراً مركزياً في هذا التحديد. وأدت الألبسة أحياناً دوراً في التحديد رغم أن الأشخاص الذين تبنوا أدوار الجنس المخالف كانوا يلبسون، وحسب الثقافة التي كانوا ينتمون إليها، مزيجاً من ثياب الرجال والنساء. وفي بعض الثقافات الأصلية في أمريكا الشمالية أدى مخالفو الجنس أدواراً قيمة في المجتمع، كالمعالجين والمؤدين لمهام الشعائر المقدسة، لأن الجنس المخالف كان يرتبط في كثير من الثقافات، بالقوة المقدسة. وعلى أية حال، كان يمكن للأفراد في كثير من المجتمعات أن يختاروا الجنس الذي يرغبون في الانتماء إليه بغض النظر عن تركيبهم البيولوجي (ناندا ٦٦).

ويهتم منظرو الجنس، بالإضافة إلى استكشاف بدائل لمفهومنا الحالي الثنائي عن الجنس، بالعلاقة بين نوع الجنس ودور الجنس: بين الطرق التي تركبت حسبها أجسادنا بيولوجياً وأدوار الجنس التي تحدد لنا. وتقول جوديث لوربر Judith Lorber خلافاً للاعتقاد السائد

> إنه ليس لنوع الجنس ولا دور الجنس تصنيفات نقية ومنفصلة، حيث يجري تجاهل التركيبات من الجينات والأعضاء التناسلية والتكوين الهرموني غير المتوافقة في تصنيف الجنس [ذكراً أو أنثى]، كما يتم تجاهل تركيبات من الفيزيولوجيا والهوية والنشاط الجنسي والمظهر والسلوك غير المتوافقة في التركيب الاجتماعي لوضع الجنس [مذكراً أومؤنثاً]. (١٤)

وباختصار فإن فكرة وجود دورين للجنس فقط مبنية على فكرة وجود نوعين من الجنس فقط، ولكن الباحثين من مجالات مختلفة قد أظهروا أن الأمر ليس كذلك: فالجنس البيولوجي لا ينقسم بانتظام إلى صنفين متضادين. وسيكون من الأكثر دقة القول إن المجتمع الأمريكي، اتباعاً للنموذج الأوروبي، قد فرض نظام نوعين من الجنس رغم أن هناك جزءاً من الشعب الأمريكي لا ينطبق عليه هذا النظام. وبتعبير آخر لم تقم تصنيفات الجنس البيولوجي بفرض نظام دور الجنسين على الأمريكيين، بل فرض الأمريكيون نظام دور الجنسين على التصنيفيين للجنس البيولوجي.

وحسب آن فاوستو- ستيرلينغ Anne Fausto-Sterling فإنه رغم صعوبة الحصول على معلومات حول تكرار كامل للحالة، هناك تقدير معقول مبني على أساس تقارير عديدة متوفرة يشير إلى أن حوالي ١,٧ بالمائة من كل الأطفال المولودين في كل عام هم بينيي الجنس intersexual (٥١)، أو كما يرى منظرو الجنس أنه جرى جعلهم كذلك intersexed. أي يمتلكون مزيجاً من الأعضاء التناسلية والأعضاء الجنسية والتكوين الهرموني والصبغي المذكر والمؤنث. وتلاحظ فاوستو- ستيرلينغ أنه:

> حتى ولو بالغنا بعامل من اثنين، فسيبقى ذلك يعني أن كثيراً من الأولاد البينيي الجنس يولدون كل عام. فبنسبة ١,٧ بالمائة وفي مدينة تعداد سكانها ٣٠٠,٠٠٠ مثلاً سيكون هناك ٥,١٠٠ شخص بدرجات متفاوتة من النمو البين جنسي. قارن هذا مع المهق [الأمهق ليس لديه صبغ ولذلك له شعر أبيض وجلد أبيض وعينان حمراوان]، الذي يعتبر صفة إنسانية غير شائعة في الولايات المتحدة، ولكن لعل معظم القراء يذكرون رؤيتها. (٥١)

وسبب عدم "رؤيتنا" الأشخاص البين- جنسيين الكثر الذين تشير إليهم فاوستو- ستيرلينغ هو ببساطة أن الأعضاء الجسدية ذات الصلة تكون عادةً إما داخل الجسم أو مستورة بالثياب. وكما تشير شارون بريفز Sharon Preeves فإن اعتقادنا بأن هناك نوعين من الجنس يقابلان دورين للجنس متجذرين لدرجة أن الأطفال البين-

جنسيين يخضعون بشكل روتيني وبسرعة وبدون علم آبائهم أو إذنهم غالباً إلى عمل جراحي لتغييرهم ليشابهوا الذكر أو الأنثى جسدياً. (٣٢)

وتبنى قرارات إعطاء جنس للطفل على عوامل تجميلية (هل سيبدو الطفل "طبيعياً؟") وعوامل اجتماعية، (إذا جرى تحويله صبياً فهل سيكون قادراً على التبول واقفاً وهل سيكون عضوه الذكري كبيراً بما يكفي لممارسة الجنس؟) وليس على إمكانية أن يكون الطفل من جنس آخر أو مزيجاً من الجنسين في كل جانب آخر (كيميائياً وهرمونياً وعضوياً). فعلى سبيل المثال، يمكن أن يكون للطفل البين- جنسي تكوينٌ جينيٌ ذكري (xy)، ولكن جزء القضيب في الأعضاء الذكرية يعتبر صغيراً جداً حسب الفريق الطبي المسؤول، بحيث لا يعتبر "طبيعياً" عندما يبلغ الطفل وعلى الأغلب غير قادر على التبول واقفاً (مثلاً لأن الإحليل ينفتح عند قاعدة القضيب بدلاً من رأسه)، فالأغلب في هذه الحالة أن يتم تحويل الطفل جراحياً وهرمونياً إلى أنثى .وهذه الممارسة لا تزال مستمرة رغم الدراسات التي تظهر أن حجم قضيب الطفل أو بظر الطفلة لا علاقة له بحجم أعضائه الجنسية عند البلوغ (بريفز ٣٣).

وتذكر بريفز أنه وحتى وقت متأخر في التسعينيات كان الناشطون يناقشون مسألة العابرين للجنس transgender activists (والعابر للجنس هو شخص لا يتفق عنده دورالجنس مع جنسه البيولوجي) بأن الأفراد البين جنسين يجب ألا ينظر إليهم باعتبارهم شاذين، بل باعتبارهم أناساً طبيعين ينتمون إلى تصنيف جنسي مختلف. وقد اقترح بعض الناشطين أن هناك خمسة أجناس يمكن أن توجد بشكل طبيعي: ١.الأنثى ٢.الأنثى البين جنسية (وهي شخص بين جنسي تطغى عليها الأعضاء الجنسية الأنثوية ظهوراً أو فاعلية) ٣.البين جنسي الحقيقي (شخص بين جنسي يتساوى لديه بروز أو فاعلية الأعضاء الجنسية الذكرية والأنثوية) ٤. والذكر البين جنسي (شخص بين جنسي بأعضاء جنسية ذكرية أكثر بروزاً أو فعالية) ٥. والذكر (بريفيز ٣٣) .

وربما تكون النقطة الأكثر إثارة للدهشة ليست تكرار الولادات البين- جنسية، رغم أن تكرارها سيفاجئ الكثير منا، ولكن رد فعل مهنة الطب تجاهها. فإذا لم يكن هناك اعتبارات صحية في خطر (كوجود إحليل لا يعمل) فهل يجب أن تكون هناك سرعة لإجراء عملية؟ ولماذا لا يكون السلوك السائد إعطاء الوالدين أولاً مواد تثقيفية لتتسنى لهم الفرصة لمعرفة تشعب البنية الجنسية لمواليدهم؟ ولماذا لا يتم إرشاد الوالدين إلى منظمة لآباء الأطفال البين جنسيين، وما هو أهم، لماذا لا توجد مثل هذه المنظمات؟ أو لماذا لا يوجد ما يكفي منها؟ ولماذا لا يملك الطفل، عندما يبلغ، خيار المعرفة عن جنسه البيني. وإذا كان العمل الجراحي خياراً فلماذا لا يقوم الطفل بذلك الاختيار في مرحلة بعد ذلك في حياته؟

وبالتأكيد تتضمن الأسباب ما يمكن تسميته طغيان نظام صنفي الجنسين /أدوار الجنسين، وأعتقد أنه من المعقول الاشتباه بأن المجتمع يمارس إلى درجة معينة، طغيان هذا النظام الثنائي على مهنة الطب الذي تمارسه مهنة الطب على المجتمع. "ما المشكلة مع طفلي؟" "ألا يستطيع الطبيب إصلاحها؟" بالتأكيد تقفز هذه الأسئلة إلى أذهان

كثير من الأباء الذين يُخبرون بأن مواليدهم بين جنسيين لأننا جميعاً مبرمجون اجتماعيا على التفكير ضمن حدود النظام الثنائي لنوع الجنس/ و دور الجنس. ويرى كثير من منظري الجنس أن المشكلة هي أن الآباء أيضاً لا يخبرون أحياناً بأن أولادهم بين جنسيين. وإنما يتم عادة إخبارهم بأن لدى رضيعهم خللاً ولادياً في الأعضاء الجنسية، وأن على الأطباء اكتشاف"الجنس الحقيقي" للمولود وإعطاءه له (فاوستو-ستيرلينع ٣٠) . فأي خيار تترك هذه اللغة أمام الوالدين؟

وأخيراً يهتم كثير من منظري الجنس بالعلاقة بين السلوك الجنسي ودور الجنس أي بين توجهاتنا الجنسية والطرق التي ينظر بها إلينا بخصوص الجنس .وبالتأكيد فإن كثيراً من القسوة والمعاملة غير العادلة التي يتلقاها كثير من الناس غير الأسوياء تعود بشكل كبير إلى حقيقة أنهم لا يلتزمون بسلوك أو مظهر الجنس التقليدي. وفي الحقيقة يوافق كثير من منظري الجنس على أنه بينما يشكل "فهمنا الثنائي للمؤنث والمذكر طريقة تصورنا للجنس... فإن افتراض السلوك الجنسي السوي يحدد الطرق التي نشكل بها تلك الأنوثة و الذكورة" (كراني- فرانسيس وآخرون Cranny-Francis et al. ix ٩) وبتعبير آخر فإن تحديد دور جنس الطفل (تربية الطفل ليلتزم دوره أو دورها التقليدي للجنس اجتماعياً ونفسياً تتم دائماً حسب تشكيل الجنس وفقاً للنشاط الجنسي السوي. وهكذا يؤسس نظام نوع الجنس / دور الجنس ليس فقط الأجساد ولكن أيضاً الرغبات التي يمكن أن توجد لديها " (كراني فرانسيس وآخرون ٦).

من المفيد أن ننظر في هذا السياق إلى جزء من التاريخ تظهره الكتابات الطبية والدينية في بعض ثقافات أوروبا الغربية. إذ تشير هذه الكتابات، كما تذكر شارون بريفيز أنه منذ قرون مضت كانت ثقافات أوروبا الغربية تعتبر الناس البين- جنسيين أعضاء في جنس ثالث كان ينظر إليه أحياناً على أنه طبيعي وعلى أنه شاذ في أحيان أخرى، ولكن كان يعترف بانتمائهم إلى جنس فريد (٣٤). بالإضافة إلى ذلك كان يسمح للبين- جنسيين باختيار نوع جنسهم ودور جنسهم ونشاطهم الجنسي. يبدو هذا جيداً ولكن الأمور تصبح مثيرة في هذه النقطة. فكر في هذا الأمر: كان يعترف بالبين- جنسيين باعتبارهم أفراداً ينتمون إلى جنس ثالث – ليس ذكراً ولا أنثى - وبرغم هذا كان عليهم أن يختاروا تحديد أنفسهم إما ذكوراً أو إناثاً. ومتى قاموا بذلك الاختيار فلا يسمح لهم أن يغيروا ذلك. وهكذا لم يكن محكوماً بعقلية ثنائية نوع الجنس/ دور الجنس التي لا تزال تسيطر على ثقافتنا اليوم فحسب، ولكنه محكوم أيضاً بالخوف من المثلية التي لا تزال تفتك بنا. ولأنه، وكما تبين بريفيز أن موقف اختر جنساً واحداً والتزم به، والذي كان مفروضاً بقوة القانون، كان مبنياً على الخوف من أنه بدون هذا القانون يمكن للشخص البين جنسي أن يختار أن يكون امرأة (تستخدم أعضاءها الجنسية المؤنثة فقط) وتتزوج رجلاً، ثم تغير رأيها لتصبح رجلاً (يستخدم أعضاءه الجنسية الذكرية) وفي هذه الحالة يتألف الزواج من رجلين (٣٦).

وقبل أن ننهي هذا الموضوع من المهم أن نتذكر أنه عندما نتحدث عن نوع الجنس و دور الجنس (sex and gender) فإننا نتحدث عن أناس وكيف يعيشون حياتهم اليومية. ولذلك دعونا نفكر بتجربة الناس الذين لا يشعرون بأن لهم مكاناً مناسباً في النظام الثنائي التقليدي السوي جنسياً لنوع الجنس/ دور الجنس مثل نظامنا. لأنه رغم التقدم الذي أحرز في حقول كالنسوية ودراسات الجنس ونظرية الغرابة (التحرر الجنسي) يصر مجتمعنا على التفكير بأن تعبيري نوع الجنس ودور الجنس يعنيان بشكل أساسي الشيء نفسه، وأن الناس الذين يستحقون أن نفكر فيهم هم السويون جنسياً، والذين ينتظمون في التصنيفات التقليدية المذكر/الذكر والمؤنث/ الأنثى. وتتجاهل هذه الحالة التقدم النظري الذي قدم لنا مثلاً مفاهيم كالهوية الجنسية، والخنوثة، وتحديد صنف الجنس/دورالجنس الذي يسمى"التبيّن" questioning . فكر بالمساهمة الكبيرة التي قدمتها هذه الأمثلة الثلاثة فقط فيما يخص فهمنا لتعقيد مصطلح الجنس gender . إن مصطلح الهوية الجنسية يتضمن أن دور الجنس للشخص gender قد لا يتطابق مع جنس الشخص البيولوجي sex – لأنها إذا تطابقت معه لم تكن هناك حاجة إلى مصطلح الهوية الجنسية gender identity. ونعرف من مصطلح الخنوثة androgyny أنه بغض النظر عن جنس الشخص فإن هويته الجنسية يمكن أن تتشكل من مزيج من السلوكين المذكر والمؤنث. وأخيراً يفتح التبيّن الباب أمام الناس الذين يشعرون بعدم التأكد من توجهاتهم الجنسية والناس الذين لا تسمية موجودة "لهوية كل من نوعهم الجنسي و دورهم الجنسي" (بيري وبالارد-رايش ٣٠ Perry and Ballard –Reisch)

ومما يؤسف له أن التمييز على أساس الجنس موجود اليوم بأشكال عديدة، ومع ذلك لا يشعر به إلا الذين عليهم أن يعانوا منه أو أن يعاني منه من يحبونهم. وتعطي كلٌ من ليندا إيه إم بيري Linda A. M. Perry و ديبورا بالارد- رايش Deborah Ballard-Reich ثلاثة أمثلة عن التمييز على أساس الجنس أعتقد أنكم ستجدونها مفيدة ومحفزة للتفكير. دعوني أذكرها هنا باختصار لأعطيكم فكرة عن المدى المتوفر للإنسان بخصوص تحديد هويته الجنسية وعن الاضطهاد الذي يتعرض له كل من يبدو مختلفاً.

ففي المثال الأول الذي تقدمه بيري و بلارد- رايش هناك رجل سوي جنسياً ومتزوج وأب وفي بعض الأحيان يرتدي لباس الجنسين- أي يلبس ثياب الجنس الآخر، ويتصرف بطريقة ترتبط بجنسه البيولوجي – قد تعرض لسوء معاملة لفظية وجسدية من قبل الناس السويين والمثليين. فهو شخص سوي يرتدي ثياب الجنس الآخر، لذلك فإنه لا يتطابق مع الفكرة المسبقة عن المثليين الذين يرتدون لباس الجنس الآخر المعروفين لدى المجموعتين، ولذلك جرى رفضه من المجموعتين (٢١-٢٢). وفي مثال آخر تتحدث بيري وبالارد- رايش عن مثلي الجنس يرتدي ثياب الجنس الآخر transvestite (شخص يتبنى لباس وسلوك الجنس الآخر بطريقة مبالغ فيها عادة)، فهو يعانى من رفض مجتمع المثليين الذين يريدون تشجيع الظهور السياسي للمثلية – ولكنهم يخشون إغضاب

الأسوياء. والمفارقة هنا واضحة ومؤلمة : فالمجموعة التي تشجع الظهور ، والتي تم رفضها بسبب اختلافها ترفض أحد أعضائها بسبب اختلافه (٢٢-٢٣). وفي مثال بيري وبالارد- رايش الأخير نلتقي برجل قد غير جنسه البيولوجي من أنثى إلى ذكر ليحصل على جسد يتفق مع هويته الجنسية والتي كانت دائماً مذكَّرة. وقد كان قبل عملية تحويل الجنس سحاقية ذكراً. الآن بوصفه رجلاً لا يزال ينجذب نحو النساء ولذلك فهو رجل سوي. فمشكلته يجب أن تكون قد حلت على ما يبدو ، ولكنه لا يزال غير قادر على الحصول على القبول بسبب تاريخه المتعلق بكل من نوعه و دوره الجنسي. لقد أمضى حياته محاولاً شرح هوياته الجنسية متعرضاً للمضايقة بسبب اختلافه. فكأنثى بيولوجياً لم يشعر بأن له مكاناً في المجتمع لأن هويته الجنسية كانت ذكراً مذكراً ينجذب نحو النساء. و بعد تغير جنسه لم يشعر بالانتماء إلى المجتمع لأن أسرته وأصدقاءه لا يقبلون تحوله الجسدي. ورغم ذلك يصر على صراحته حول تاريخه الجنسي لأنه يعتقد أن الصراحة ضرورية لجعل المجتمع يدرك أن هناك عدداً كبيراً من الناس لا ينطبق عليهم المعيار السوي لما هو "طبيعي" (٢٤).

من الواضح إذاً أن النسوية و دراسة الجنس مرتبطان بقوة ، فهما يشتركان في بعض المواضيع التي يدرسانها و في الرغبة في العدالة و في الإيمان بقوة التربية من أجل تغيير المجتمع نحو الأفضل. فلقد عملت النسوية لسنيين من أجل المساواة على أساس الجنس : من أجل إذابة أدوار الجنس الذكورية التي لا تزال حتى اليوم تبدد الجهود من أجل تحقيق مساواة كاملة بين الرجال والنساء. و لا تزال دراسات الجنس تعمل على توسيع فهمنا لدرجة تعقيد مصطلح الجنس.

وبالطبع هناك من القضايا النسوية أكثر من التي جرى مناقشتها في هذا الفصل. و كما الحال في كل مجال ، هناك كثير من الخلافات بين المنظرين النسويين و النقاد الأدبيين بما يتعلق بكيفية برمجة الأيديولوجية الذكورية للنساء وكميتها ، وما إذا كانت النساء تكتب بطريقة معينة يمكن تسميتها مؤنثة ، وما إذا كان من الواجب تحليل كتابات النساء حسب معايير تختلف عن المعايير التي تستخدم مع كتابات الرجال وبالطرق المختلفة لتداخل عوامل ثقافية مختلفة مع نوع الجنس ودور الجنس لخلق التجربة النسائية. وبالآفاق الجديدة التي تقدمها جهود منظري الجنس لتوسيع مفهومنا عن الجنس. و هدفنا هنا هو أن نعرض أمام القارئ الأفكار الرئيسة والمبادئ العامة التي يحتاج أن يلم بها من أجل فهم بعض القضايا التي يثيرها بعض المنظرين النسويين والنقاد الأدبيين.

النسوية والأدب

بالطبع تتوافق بعض الأعمال الأدبية أكثر من غيرها مع التحليل النسوي أو على الأقل مع أنواع معينة من التحليل النسوي. ومن المهم للمبتدئين من الطلاب في هذا المجال أن يدرسوا الطرق التي تعزز فيها النصوص الأدبية

السلطة الذكورية، لأن القدرة على رؤية متى و كيف تعمل الأيديولوجية الذكورية مهمة جداً بالنسبة لقدرتنا على الحد من تأثيرها في حياتنا. وكان تطبيق هذا المنهج على الأعمال الأصيلة لكتاب ذكور، الأسلوب المسيطر على النقد النسوي في أمريكا في سبعينيات القرن الماضي. ويتطلب هذا المنهج عادة قراءة النص بما لا يتفق مع نيته الواضحة لأن الأدب الذكوري عادة غير واع للأيديولوجية الذكورية التي يشجعها، ولنكن أكثر دقة، لا يرى الأدب الذكوري ضيراً في تحامله على أساس الجنس.

فيمكن أن يدرس التحليل النسوي للأيديولوجية الذكورية الموجودة في مسرحية "موت بائع متجول" Death of a Salesman (١٩٤٩) للكاتب آرثر ميلر، مثلاً، ثلاث مناطق مترابطة: ١. الطرق التي تعمل بها الشخصيات النسائية (الفتيات المتعددات اللواتي "يظفر" بهن بيف Biff و هابي Happy ، المرأة التي يلتقيها ويلي في غرفة فندق في بوسطن وليندا لومان) كرموز لمكانة الذكور. ٢. الطريقة التي تؤيد التحيز الجنسي لدى رجال عائلة لومان من خلال النظرة إلى المرأة "فتاة طيبة" أو "فتاة سيئة". ٣، والطريقة التي تشربت بها ليندا لومان الأيديولوجية الذكورية. وستشير القراءة النسوية أيضاً إلى أن المسرحية تعزز الأيديولوجية الذكورية من خلال تصويرها المتعاطف لشخصية ويلي، وما يبدو تقبلاً لتأييد ليندا لموقفه الذكوري. وستربط هذه القراءة الأيديولوجية الذكورية بالفترة التي كتبت بها، والتي تدور أحداثها فيها: أمريكا ما بعد الحرب العالمية الثانية. ففي هذه الفترة حاولت الذكورية الأمريكية التصدي لحرية النساء خلال فترة الحرب، إذ شغلن وظائف وتحملن مسؤوليات الأسر في غياب أزواجهن، عن طريق إعادة تأسيس الاعتقاد بأن "مكان المرأة الصالحة هو البيت."

وبالطبع من المهم أيضاً أن تكون قادراً على معرفة ما إذا كان العمل الأدبي يصور الأيديولوجية الذكورية من أجل أن يقوم بنقدها أو ليدعونا لفعل ذلك بأنفسنا. فعلى سبيل المثال، يمكن أن تدرس قراءة نسوية لرواية "العين الأشد زرقة" The Bluest Eye (١٩٧٠) للكاتبة توني موريسون الطرق التي تدعونا فيها الرواية إلى نقد السلوك والمواقف المتحاملة جنسياً التي تقوم برسمها. إن رسم النساء مواقع يجري من خلالها إزاحة آلام الرجال وغضبهم، هو إيضاح مثير لرؤية الرواية حول النفسية الذكورية. يمكننا رؤية مثال هذا في كره شولي الشاب لدارلين التي يفرغ فيها كرهه للصيادين البيض الذين يقومون بإذلاله. بالإضافة إلى ذلك يظهر البرنامج النسوي للرواية في تقديره للنساء القويات – مثل العمة جيمي، وإم دير، والسيدة ماكتير– وفي أهمية الأخوة لبقاء النساء. وتُظهر "العين الأشد زرقة" كيف تتقاطع قضايا الجنس مع العرق، لأن كره تشولي لدارلين هو نتيجة مباشرة لعجز شاب أسود في مواجهة عنصرية الصيادين البيض، وتصبح أهمية الأخوة لبقاء النساء قويات بشكل خاص عندما يكنّ ضحايا للقوى المشتركة للتحامل الجنسي و العنصرية.

وأخيراً يوجد في كثير من الأعمال الأدبية استجابة غير موحدة للأيديولوجية الذكورية، كما نرى مثلاً في "فرانكنشتاين" Frankenstein (١٨١٨) للكاتبة ماري شيلي Mary Shelley. فمن جهة يقوض النص اعتقاد الذكورية بضعف الأنثى من خلال رسمها لقوة المرأة : كارولين هي مصدر العون المادي والنفسي لوالدها المدمر، كما تواجه جوستين بشجاعة ونبل شجب المجتمع الظالم لها، والذي يتضمن عقوبة الموت، وتتحدى صافي والدها الذكوري، وتمضي بنجاح في رحلة لتحقيق أهدافها. ويمكن قراءة الوحش أيضاً باعتباره مدافعاً مباشراً عن حقوق المرأة. ففي طرق متعددة يتبوأ الوحش مكان المرأة في المجتمع الأوروبي في القرن الثامن عشر. فهو يعتبر دون الرجال لذلك يُحرَم من حقوق الرجال والراحة التي يتمتعون بها، ومع ذلك يثقف نفسه، وهو ذكي وفصيح بشكل واضح، وكل ما يريده هو أن يُقبَل فرداً في الأسرة الإنسانية على قدم المساواة التي يريد أن يساهم فيها بشكل طوعي (ونرى ذلك عندما يساعد دو ليسي De Lacey دون إعطاء اسمه).

ومن ناحية أخرى تعزز الرواية الأيديولوجية الذكورية من خلال إعجابها بطريقة التزام كارولين وجوستين وإليزابيث وأجاثا بأدوار الجنس التقليدية. فثلاث من هؤلاء "العذراوات" يكرسن حياتهن لرعاية الآخرين لدرجة التضحية بحياتهن من أجلهم، سواء أدركن ذلك أم لا. فتموت كارولين أماً وفية ترعى إليزابيث، وتموت إليزابيث خادمة وفية وأماً بديلة تثق بآراء زوجها، وتلبي احتياجاته في الوقت الذي يفترض أن يموت فيه فيكتور. وحتى سلوك صافي المستقل يخدم رغبة المرأة التقليدية في الحصول على زوج . بالإضافة إلى ذلك، لا تدعونا الرواية لننقد كره النساء misogyny أوالجاينوفوبيا gynophobia (الخوف من النساء و كرههن باعتبارها كائنات جنسيات وقادرات على الإنجاب) وهو ما نراه بوضوح في كره فيكتور القاتل للوحشة، وبطريقة أقل وضوحاً في تجنبه لإليزابيث. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن تدرس هذه القراءة الطرق التي تنعكس فيها استجابة الرواية غير الموحدة للأيديولوجية الذكورية في صراعات ميري شيلي فيما يتعلق بتجربتها الخاصة مع الذكورية: فمثلاً كانت شديدة الإعجاب بمقالات والدتها المتوفاة ماري ولستونكرافت Mary Wollstonecraft ضد الذكورية. لقد تحدت ماري شيلي القيم الذكورية عندما هربت مع رجل متزوج، بيرسي شيلي، ومع ذلك يبدو أنها كانت شديدة الاعتماد على زوجها و شديدة الخضوع له.

لأن القضايا النسوية تمتد عبر تصنيفات ثقافية واجتماعية وسياسية ونفسية، نجد أن النقد النسوي واسع جداً. ومهما يكن نوع التحليل المستخدم فإن الهدف النهائي للنقد النسوي هو زيادة فهمنا لتجربة المرأة في الماضي و الحاضر و نشر تقديرنا لقيمة المرأة في العالم.

بعض الأسئلة التي يطرحها النقاد النسويون حول النصوص الأدبية

تلخص الأسئلة التالية مفاهيم النسويين لدراسة الأدب. إن المفاهيم التي تحاول تطوير إطار نسوي محدد لتحليل كتابات النساء (مثل الأسئلة ٦، ٧، ٨) يطلق عليها غالباً النقد النسوي gynocriticism .

١- ما الذي يكشفه العمل الأدبي عن العمليات الذكورية (اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وفيزيولوجياً)؟ وكيف يجري تصوير النساء؟ وكيف ترتبط طريقة تصوير النساء بقضايا الجنس في المرحلة التي كتبت فيها الرواية، أو المرحلة التي تدور فيها أحداثها. بتعبير آخر، هل يعزز العمل الأيديولوجية الذكورية أو يقوضها. (ويمكن أن نقول في الحالة الأولى بأن العمل له برنامج ذكوري، وأن نقول إن لديه برنامجاً نسوياً في الحالة الثانية. أما النصوص التي يبدو أنها تعزز وتقوض الأيديولوجية الذكورية في الوقت نفسه فيمكن القول بأن لديها صراعاً إيديولوجياً).

٢- ماذا يقول العمل عن الطرق التي يتشابك فيها العرق، والطبقة الاجتماعية، والعوامل الثقافية الأخرى مع الجنس لإنتاج تجربة النساء.

٣- كيف يتشكل العمل على أساس الجنس؟ أي كيف يبدو أنه يعرف المذكر والمؤنث؟ وهل تلتزم الشخصيات سلوكياً بالأدوار المرسومة لها؟ وهل يرى العمل أن هناك أنواعاً للجنس غير المذكر و المؤنث؟ وكيف يبدو موقف العمل تجاه أنواع الجنس التي يرسمها؟ مثلاً، هل يبدو أن العمل يقبل أو يرفض النظرة التقليدية للجنس؟

٤- ماذا يتضمن العمل عن إمكانات الأخوة بوصفها أسلوباً لمقاومة الذكورية؟ وما الطرق التي يمكن بها تطوير أوضاع النساء اقتصادياً و سياسياً و اجتماعياً و نفسياً؟

٥- ماذا يخبرنا تاريخ تلقي النص لدى النقاد والجمهور عن عمليات الذكورية؟ وهل تم تجاهل العمل الأدبي أو رفضه في الماضي؟ و لماذا؟ وإذا جرى الاعتراف به في الماضي فهل يتم تجاهله أو إهماله الآن؟ و لماذا؟

٦- ما رأي العمل في إبداع النساء؟ و تتطلب الإجابة عن هذا السؤال معلومات عن حياة الكاتبة و معلومات تاريخية عن الثقافة التي عاشت فيها.

٧- بِمَ يمكن أن تساهم دراسة أسلوب الكاتب في الجهود المستمرة لإيضاح الشكل الخاص بكتابة النساء؟

٨- ما الدور الذي يلعبه العمل في التاريخ الأدبي للنساء وتقاليدهن الأدبية؟

اعتماداً على العمل الذي تجري دراسته يمكن أن نطرح سؤالاً واحداً أو مجموعة من هذه الأسئلة. كما يمكن إثارة أسئلة مفيدة ليست في هذه القائمة. وهذه مجرد نقاط بداية لنبدأ في التفكير بطريقة نسوية منتجة حول الأعمال الأدبية. تذكر أن النقاد النسويين لا يفسرون الأعمال الأدبية بالطريقة نفسها حتى لو ركزوا على المفاهيم النسوية نفسها. و كما في كل حقل، فحتى الممارسون المتمرسون يختلفون. و هدفنا من استخدام النظرية النسوية هو إغناء قراءتنا للأعمال الأدبية، و لكي تساعدنا هذه النظرية على رؤية بعض الأفكار ذات الأهمية التي يوضحونها، والتي

لا يمكن أن نراها بوضوح أو بعمق بدون النظرية ، و لمساعدتنا في رؤية الطرق التي تمنعنا فيها الأيديولوجية الذكورية من رؤية مشاركتنا في البرامج المتحيزة جنسياً ، أو على الأقل تعاطفنا معها.

إن القراءة النسوية التالية لرواية "جاتسبي العظيم" للكاتب إف سكوت فيتزجيرالد مثالٌ لما يمكن أن تقدمه قراءة نسوية لتلك الرواية ؛ فهي تركز على ما أرى بأنه برنامج للرواية متحيز على أساس الجنس ، كما سيتكشف في طريقة رسم النص للشخصيات النسائية و في المحتوى الأيديولوجي الذي يفترض أن يكون فهمه سهلاً في هذه المرحلة. بالإضافة إلى ذلك سأدرس الأيديولوجية الذكورية للرواية وخاصة الدور المتغير للنساء الأمريكيات خلال العشرينيات من القرن العشرين لأن أغلب النسويين بدؤوا يدركون أن الظروف التاريخية المحددة تولد إيديولوجيات معينة. ولكن الجزء التاريخي لمناقشتي ليس معقداً بل يبني على معلومات تاريخية لعلها مألوفة لأغلبكم.

"... وفي الخطوة التالية سيتخلصون من كل شيء..." : قراءة نسوية لرواية "جاتسبي العظيم"

في رواية "جاتسي العظيم" (١٩٢٥) للكاتب إف سكوت فيتزجيرالد ، يتعجب توم بوكانن بخوف وعلى نحو مفاجئ قائلاً لدى اكتشافه أن زوجته قد اتخذت عشيقاً : "في هذه الأيام يبدأ الناس بالسخرية من الحياة العائلية والمؤسسات الأسرية ، وبعد هذا سيتخلصون من كل شيء ، وسيكون هناك تزاوج بين البيض والسود (١٣٧ ؛ ف٧). فبالإضافة إلى معايير توم المزدوجة تجاه سلوكه وسلوك زوجته (وعنصريته) تظهر هذه الجملة افتراضات توم بأن الإطار الأخلاقي للمجتمع يرتكز على استقرار الأسرة الذكورية ، وأن استقرار الأسرة الذكورية يركز على التزام النساء بأدوار الجنس الذكورية. بالطبع تسخر الرواية عن طريق سرد نيك كاراواي ، بوضوح من موقف توم يلاحظ نيك أن "توم المتوهج بممارسة الهراء الذي يتفوه به كان ينظر إلى نفسه وكأنه يقف وحده عند آخر حاجز للحضارة" (١٣٧ ؛ ف٧). ورغم هذا أعتقد أنه يمكن إظهار كيف تشارك الرواية توم رأيه حول أدوار الجنس التقليدية.

لقد كتبت الرواية في العقد الذي أعقب الحرب العالمية الأولى التي انتهت في تشرين الثاني ١٩١٨ ، وتدور أحداثها في نفس العقد. فالعشرينيات الصاخبة أو عصر الجاز the Jazz Age ، وهو مصطلح صاغه فيتزجيرالد ، كانت فترة تغير اجتماعي هائل ، وخاصة فيما يتعلق بحقوق المرأة. فقبل الحرب العالمية الأولى لم تتمتع كل نساء أمريكا بحق التصويت ، و إنما أعطين هذا الحق في عام ١٩٢٠ ، بعد عامين من نهاية الحرب (وبعد اثنين وسبعين عاماً من الحراك السياسي). وقبل الحرب كان اللباس القياسي للنساء يتضمن تنورات طويلة ، ومشبكات بأربطة قوية ، وأحذية بأزرار عالية ، وشعر طويل ممشط على الرأس باحتشام. وبعد الحرب بسنوات قليلة أصبحت التنورات أقصر (وفي بعض الأحيان أقصر بكثير) ، وبدأت المشدات ذات المرابط تختفي (وفي الواقع لم تلبس أغلب النساء

الشابات الجريئات وغير التقليديات إلا قليلاً، وأحياناً لم يلبسن أية ملابس داخلية مقيدة)، واستبدلت الأحذية الحديثة غالباً بالأحذية ذات الأزرار العالية وأصبحت قصات الشعر القصير والمنسدل موضة للفتيات.

وربما كانت بداية التغير في سلوك النساء الأشد إنذاراً للمدافعين عن الطرق القديمة. فلقد كان بالإمكان رؤية النساء يدخن ويشربن (رغم حظر الخمور)، وغالباً برفقة الرجال وبدون مرافقات لحمايتهن. كما كان يمكن رؤيتهن أحياناً يستمتعن بحياة ليلية صاخبة في النوادي الليلية والحفلات الخاصة. وحتى الرقصات الجديدة لتلك الفترة، والتي بدت جامحة وجنسية بشكل صريح لكثير من الناس، أظهرت موقفاً يتبنى حرية التعبير عن الذات والمتعة غير المقيدة. وبتعبير آخر، و كما نرى غالباً في أوقات التغير الاجتماعي برزت "امرأة جديدة" في العشرينيات. وقد أثار ظهورها في المشهد قدراً كبيراً من رد الفعل السلبي من أعضاء المجتمع المحافظين رجالاً ونساءً، فقد شعروا، كما يشعرون عادةً في مثل هذه الأوقات، أن رفض النساء لأي جانب من دورهن التقليدي سينجم عنه تدمير الأسرة والانحطاط الأخلاقي للمجتمع أم كله.

إن هذه النظرة إلى النساء على أنهن الحاملات الأساسيات للقيم التقليدية واللواتي يعتبر وجودهن مشرفات غير مأجورات على البيت ضرورياً للمحافظة على البنية الأخلاقية للمجتمع، أصبحت الأيديولوجية المهيمنة في مجتمع القرن التاسع عشر الصناعي إذ لم يعد البيت المكان الذي تعمل فيه الأسرة معاً لتكسب عيشها، وذهب الرجال ليكسبوا عيش الأسرة في مهن مختلفة في المدن. فباختفاء دور المرأة الاقتصادي في البيت تم خلق دور روحي منزلي لها لمنعها من منافسة الرجال في سوق العمل بالإضافة إلى أهداف أخرى. وهكذا رغم أن معظم الأمريكيين كانوا يعتقدون بأن بقاء البنية الأخلاقية الأمريكية كان يعتمد على أدوار الجنس التقليدية فقد كانت البنية الاقتصادية للأمة، والتي وهبت الهيمنة الاقتصادية للرجال، هي التي اعتمدت على مسلّمة "مكان المرأة هو البيت". وبالطبع هناك فائدة أخرى من إبقاء المرأة في البيت محتشمة في لباسها وهادئة في سلوكها وهي إعادة التأكيد على ملكية الرجل لنشاط المرأة الجنسي وقدراتها الإنجابية. وكان للتهديد الذي أبرزته المرأة الجديدة في العشرينيات أصداء على عدة مستويات في الوعي العام.

تعكس الأعمال الأدبية عادة الصراعات الأيديولوجية في ثقافاتها سواء كانت تقصد ذلك أم لا لأن الكتّاب، مثلنا، يتأثرون بالنزعات الأيديولوجية في أزمانهم. ولم يكن كاتب مثل إف سكوت فيتزجيرالد، بشخصه المميز بين الطبقة الاجتماعية المتقدمة في العشرينيات والذي كان متزوجاً من امرأة جديدة، بمعزل عن تأثير الصراعات الأيديولوجية التي ميزت عصره. ويمكننا التخمين بأن تجربته في "العيش في الخط السريع" هي التي خلقت بعض الترددات (الشعورية و غير الشعورية) تجاه التغيرات التي كانت تحدث في أمريكا في العشرينيات. أو يمكننا التكهن بأنه كان قادراً على تقبل المرأة الجديدة فقط إذ نظر إليها امرأة مضطربة نفسياً وبحاجة إلى مساعدته، وهو وضع يتضح في روايته التي تقترب من السيرة الذاتية بعنوان "لطيف هو الليل" Tender is the Night (١٩٣٤) وحياته العاصفة مع

زوجته زيلدا. على أية حال، لا أنوي أن أدرس حياة فيتزجيرالد، وإنما أريد أن أدرس الطرق التي تجسد فيها رواية "جاتسبي العظيم"، عمله الأطول بقاء، ضيق ثقافته بالمرأة الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى.

ونرى عدم الارتياح هذا في تقديم الرواية للشخصيات النسائية الثانوية كما نراه في طرق أكثر تعقيداً في رسمها للشخصيات الرئيسة لكل من ديزي بوكانن، وجوردان بايكر، وميرتل ويلسون، وجميعهن نسخ من المرأة الجديدة رغم الفروق العديدة بينهن. وبإمكاننا أن نفترض أن وصف نيك لهذه الشخصيات يمثل التحيزات الإيديولوجية للرواية وليس تحيزاته فقط لأن النص يرسم شخصيته بتعاطف، ليس كما يفعل مع شخصية توم. وبالإضافة إلى التعاطف الذي يستدره نيك عن طريق استخدام الكاتب لتقنية السرد بضمير المتكلم – ولأننا نرى أحداث القصة من خلال عيني نيك فنحن أكثر قدرة على وضع أنفسنا مكانه – يكسب نيك تعاطفنا لأنه يروي القصة بطريقة ممتعة وحساسة يشارك فيها القارئ مشاعره الشخصية: رغباته وما يكره ومخاوفه وشكوكه وعواطفه. وأخيراً يقوم نيك بدور المركز الأخلاقي للرواية لأنه الشخصية الوحيدة التي تعي الاعتبارات الأخلاقية بشكل مطرد. ولذلك يمكن التوصل إلى نتيجة وهي أن كثيراً من القراء سيتأثرون بمنظور نيك وبقوة سواء قصد فيتزجيرالد أن يجعله سارداً موثوقاً به أم لا.

تزخر الرواية بشخصيات نسائية ثانوية تجسّد بلباسها ونشاطاتها "المرأة الجديدة." هذه الشخصيات مرسومة وكأنها استنساخ من شخصية نمطية سلبية واحدة: السطحية والاستعراضية والمقززة والخداعة. فمثلاً نرى في حفلات جاتسبي "اجتماعات حماسية غير مخلصة بين نساء لا يعرفن أسماء بعضهن" (٤٤ ؛ ف ٣)، وهناك الكثير من المولعات بحب الذات والباحثات عن انتباه الآخرين في مراحل متفاوتة من الهستيريا. فنلتقي مثلاً شابة "تشرب" شراباً " لتتشجع" و"ترقص وحيدة على الكنفا لتمثل دوراً (٤٥ ؛ ف ٣) و"فتاة صغيرة صاخبة تنفجر ضاحكة لأدنى استثارة" (٥١ ؛ ف ٣) وامرأة سكرى "لم تكن تغني فقط بل كانت تبكي" وكان وجهها مخططاً "بأنهار سوداء" صنعتها "دموعها التي لامست رموشها المكحلة بقوة" (٥٥-٥٦ ؛ ف٣) وفتاة سكرى تم تغطيس رأسها في بركة (١١٣ ؛ ف٦) لإيقاف صياحها، وزوجتان ثملتان ترفضان مغادرة الحفل إلى أن يأتي زوجاهما، اللذان أتعبهما سباب زوجاتهما، ليحملا الزوجتين ويوقفاهما من مواصلة ما هما فيه (٥٧ ؛ ف ٣).ثم هناك "بنات" بيني ماكليناهان "الأربع":

> لم تكن متشابهات تماماً في أجسادهن. لكنهن متطابقات لدرجة تجعل وجودهن هناك يبدو أمراً لا مفر منه. أعتقد أني نسيت أسماءهن وإلا فهي كونزويلا أو جلوريا أو جودي أو جوون وأسماء أسرهن كانت إما الأسماء الغنائية للورود الأشهر أو الأسماء الأكثر صرامة لكبار رأسماليي أمريكا الذين ستدعي هؤلاء النساء، إذا سئلن بإصرار، بأنهم عمومتهن أو أخوالهن. (٦٧ ؛ ف ٤)

وبتعبير آخر كل هؤلاء النساء المتشابهات اللواتي يصحبن ماكليناهان إلى حفلات جاتسبي، قد اخترعن لأنفسهن أسماء وسيراً لخلق انطباع لدى معارفهن الجدد، ولذلك يجب ألا نفاجأ عندما نسمع نيك يقول: "عدم الأمانة في المرأة شيء لا ينبغي أن تلومه بجد"، وهذا يعود إلى أن النساء غير قادرات على منع كونهن كذلك. بل ربما كان ذلك فشلاً بالطبيعة، شأنه شأن كثير من نقاط ضعف الأنوثة.

والشخصيتان النسائيتان الثانويتان اللتان نتعرف إليها على نحو أفضل، واللتان ينطبق عليهما تصنيف "المرأة الجديدة" هما: السيدة ماكي، التي توصف بأنها عالية الصياح، وكسول، وأنيقة، وسيئة (٣٤؛ ف ٢) وأخت ميرتل، كاثرين، التي تنطبق عليها الفكرة النمطية السلبية التي جرى الإشارة إليها مسبقاً. تمنح الرواية كاثرين اهتماماً أكثر مما يمنح لشخصية ثانوية، ربما لأنه جرى اختيارها لتمثل انعدام الجاذبية الجسدية لنوعها، والتي يشار إليه عند وصف الشخصيات المؤنثة الثانوية الأخرى فقط.

> كانت الأخت... فتاة نحيلة ودنيوية وعمرها يقارب الثلاثين وشعرها قصير قاس ولزج. وكانت قد أزالت حاجبيها وأعادت رسمهما بزاوية خليعة لكن جهود الطبيعة لإعادة التناسق القديم أعطى وجهها إحساساً ضبابياً. وعندما تجولت كان هناك قرقعة لا تتوقف لأن الأساور الفخارية كانت تخشخش على ذراعيها. دخلت بسرعة ونظرت إلى الأثاث وكأنها تملك المكان لدرجة أنني تساءلت فيما إذا كانت تقطن هناك ولكن عندما سألتها ضحكت على نحو غير متزن، وكررت سؤالي عالياً، وأخبرتني بأنها تعيش مع صديقة في فندق. (٣٤؛ ف٢).

هذا وصف لفتاة سوقية، وصاخبة، ومقززة، وما قالته لنيك في البداية كان كذبة صارخة. وتلبي كاثرين التوقعات التي يثيرها هذا الوصف في محادثتها مع نيك حول ميرتل وعشيقها (٣٩؛ ف٢) وفي ادعائها أنها لا تعاقر الخمر، ونحن نعلم أنه كذب عندما تظهر ثملة في ورشة إصلاح جورج ويلسون ليلة مقتل ميرتل. وتظهر سوقيتها وحماقتها أيضاً في وصفها لتجربتها مع صديقتها في مونتي كارلو: "كان لدينا ١٢٠٠ دولار عندما بدأ، ولكننا بذرناها في يومين في الغرف الخاصة. ومررنا بأوقات تعيسة في طريق العودة أؤكد لك ذلك. يا الله كم أكره تلك البلدة" (٣٨؛ ف ٢).

ويمكن للبعض أن يناقش بأن تحيز الرواية ليس على أساس جنسي، بل على أساس طبقي لأن كل النساء اللواتي مررنا على وصفهن كن من الطبقة المتدنية اجتماعياً واقتصادياً في المجتمع. ولكن هناك شخصيات عديدة من الذكور من نفس هذه الطبقات تصفهم الرواية على نحو متعاطف. فمثلاً جورج ويلسون، يوصف على أنه رجل مكافح، ورغم عيوبه الأخرى فهو وفيٌّ لزوجته. والسيد مايكلز الذي يملك مقهى في "وادي الرماد"، (٢٧؛ ف ٢) لطيف تجاه ويلسون ويحاول أن يعتني به بعد وفاة ميرتل. وحتى الزوجان اللذان يذهبان إلى الحفل يتحملان إساءات

زوجتيهما الثملتين بصبر يستحق الإعجاب وهما غير ثملين. وهكذا فإن ما يسبب إدانة الرواية لهؤلاء النساء هو خرقهن لأدوار الجنس الذكورية، وليس طبقتهن الاجتماعية الاقتصادية.

إن عدم الارتياح الذي تظهره الرواية تجاه "المرأة الجديدة" يصبح واضحاً وبطريقة أكثر تعقيداً في رسمها لشخصيات ديزى بيوكانن وجوردان بايكر وميرتل ويلسون. فرغم اختلافهن في الطبقة الاجتماعية والوظائف والمكانة الاجتماعية والمظهر الشخصي والصفات الشخصية، تعتبر هذه النساء نسخاً من "المرأة الجديدة." ومثل الشخصيات النسائية الثانوية اللواتي يمثلن المرأة الجديدة في مظهرهن وحريتهن الاجتماعية، تظهر ديزي وجوردان وميرتل بهذا الدور ويلعبنه. فقصات شعرهن وثيابهن عصرية جداً وهن لا يشعرن، كما شعرت أمهاتن وجدّاتهن بأن عليهن التصرف بحشمة في المجتمع وأن يتجنبن الشراب القوي والسجائر والرقص الفاحش. وتظهر كل هذه النساء قدراً كبيراً من الاستقلال الحديث، واثنتان منهن متزوجات، ولا يتكتمن عن تعاستهن في الزواج رغم أن سرية موضوع كهذا تعتبر إحدى القواعد الأساسية للزواج الذكوري. ولجوردان مهنتها، وفوق ذلك هي مهنة الغولف التي يهيمن عليها الرجال. وكلهن يفضلن إثارة الحياة الليلية على أعمال البيت التقليدية. وهناك طفلة واحدة لهذه النساء وهي بامي ابنة ديزي. ورغم أن بامي تتلقى رعاية جيدة من مربيتها ومعاملة ودوداً من أمها إلا أن حياة ديزي لا تدور بشكل حصري حول دورها باعتبارها أماً. وأخيراً تخرق النساء الثلاث المحرمات الجنسية الذكورية : فتنغمس جوردان في علاقات جنسية قبل الزواج ولديزي وميرتل علاقات خارج نطاق زواجهما.

يظهر موقف الرواية الذي يجد هذه الحرية غير مقبولة لدى النساء، وذلك في رسمها غير المتعاطف للشخصيات التي تمارس هذه الحرية. فتظهر ديزي فتاةً مدللة مزعجة وقاتلةً بدون شعور بالذنب. وقد اعتادت أن تكون في مركز الاهتمام لدرجة أنها لا تستطيع أن تفكر بحاجات الآخرين. ورغم أن موت ميرتل حادث، لا توقف ديزي السيارة، ولا تحاول أن تساعد المرأة المصابة. بل إنها تسرع بسيارتها وتسمح لجاتسبي بتحمل المسؤولية، ولا يستطيع أحدنا إلا أن يفكر فيما إذا قال القراء، على الأقل في العقود السابقة، لأنفسهم : "انظر ماذا يحصل عندما تقود امرأة سيارة". وما إن تعلم أن جاتسبي لا ينحدر من طبقتها الاجتماعية تتراجع إلى الحماية التي يوفرها ثراء توم وقوته تاركة جاتسبي يواجه ما يضمر له القدر. وفي الحقيقة إن قدراً كبيراً من إدانتنا لديزي ينبع من فشلها في استحقاق إخلاص جاتسبي. ورغم أنها تجعل جاتسبي يعتقد أنها ستهجر زوجها من أجله، يلاحظ نيك في مشهد الشجار في غرفة فندق في نيويورك أن "عينيها وقعت علي، وعلى جوردان لتوحي أنها لم تنو قط فعل أي شيء على الإطلاق" (١٣٩ ؛ ف١). وغالبا ما تكون طريقة حديثها مصطنعة- "إنني مشلولة من فرط السعادة (٣١ ؛ ف١) و"إنك تذكّرني بـ – وردة، وردة رائعة خالصة" (١٩ ؛ ف١) "وأيتها الغالية المباركة... تعالي إلى أمك التي تحبك" (١٢٣ ؛ ف٧) – الأمر الذي يجعل من الصعب اعتبار ما تقوله جاداً، وهكذا فهي بالإضافة إلى كل خطاياها زائفة.

وتتصف جوردان بيكر بالكذب والغش. إذ يكتشف نيك كذبها حول استعارة سيارة مكشوفة وتركها تحت المطر بدون غطاء، ويظهر أنها ضُبطت تغش في مباراة نهائية للغولف، ولكنها تمكنت من التخلص من ذلك عن طريق ما يظهر أنه رشوة أو تهديد: "لقد اقترب الأمر من الفضيحة — ولكنه اختفى . لقد تراجع أحد مساعديها في لعبة الغولف عن أقواله، واعترف الشاهد المتبقي بأنه ربما كان مخطئاً" (٦٢ ـ٦٣ ؛ ف٣). وكما الحال مع ديزي، تظهر جوردان عجزاً عن الاهتمام بالآخرين يظهر في رفضها تحمل مسؤولياتها، وكما نرى في وصف نيك لقيادتها السيارة: لقد قادت السيارة "بالقرب من العمال لدرجة أن حاجز الاصطدام في السيارة نقر أحد أزرار معطف أحد العمال". (٦٣ ؛ ف٣)، وكان ردها على تأنيب نيك لها لوجوب قيادتها بحذر أكثر أو ألا تقود أبداً، غير مبالٍ: "سيبقى الناس [الآخرون] بعيدين عن طريقي...إذ يتطلب الحادث طرفين ليحدث". (٦٣ ؛ ف٣).

وعندما يقول نيك: "افترضي أنك التقيتِ شخصا غير مبالٍ مثلك" (٦٣ ؛ ف٣) تظهر مناورة جوردان في ردها" آمل ألا يحدث ذلك... إنني أكره غير المبالين ، وهذا سبب حبي لك (٦٣ ؛ ف٣). وتنجح هذه المناورة إذ يعترف نيك: "ظننت للحظة أنني أحببتها" (٦٣ ؛ ف ٣). وبالطبع، فإن حقيقة أن على جوردان القيام بالغش بغية كسب لعبة الغولف يتضمن أن النساء لا يستطعن النجاح في عالم الرجال بالاعتماد على قدراتهن. ويكمل وصفها الجسدي الفكرة النمطية بأن النساء اللواتي يقتحمن عالم الرجال مسترجلات: كانت فتاة نحيفة صغيرة الثديين، ذات وقفة منتصبة زادتها شدة بإرجاع جسدها وخاصة الكتفين إلى الخلف، مثل عسكري مستجد (١٥ ؛ ف١) والكلمة التي تستخدم غالباً لوصف مظهرها هي أنيقة jaunty. وبتعبير آخر تبدو جوردان كأنها ولد.

وبالتأكيد سيلقى تصوير شخصية ميرتل ويلسون التعامل الأقل تعاطفا، فهي صاخبة وبغيضة وزائفة كما نشاهد في سلوكها "الشديد التكلف" (٣٥ ؛ ف٢) في أثناء الحفل في الشقة الصغيرة التي يخصصها توم للقاءاتهما. إنها تخون جورج الوفي لها- ولذلك ليس لها مبرر مثلما لديزي التي يخونها زوجها- كما تتنمر على زوجها وتهينه، وتفتقر إلى جمال جوردان وديزي وشبابهما: "كانت في أواسط الثلاثينيات من عمرها، وكانت بدينة قليلاً... ولم يحتو وجهها ...على أي مظهر من الجمال" (٢٩-٣٠ ؛ ف٢). وخلافاً للمرأتين الأخريين، فهي شبقة على نحو واضح: "كانت تحمل لحمها الزائد بشهوانية" (٢٩ ؛ ف٢). "وكانت هناك حيوية بادية بوضوح وكأن أعصاب جسدها كانت تتقد باستمرار" (٣٠ ، ف٢). بالإضافة إلى ذلك، فهي أكثر عدوانية جنسيا من جوردان وديزي، فعند ما ظهر توم ونيك فجأة أمام كراج ويلسون

> ابتسمت ببطء، ومشت نحو زوجها كما لو أنه شبح، وصافحت توم وهي تنظر إليه و الوميض في عينيها، وبعد ذلك بللت شفتيها وقالت لزوجها بصوت خافت متحشرج دون أن تلتفت:
>
> "أحضر بعض الكراسي، لم لا تفعل، لكي نجلس"
>
> "بالتأكيد"، وافق ويلسون... لقد غطى غبار الرماد الأبيض سترته الداكنة وشعره الشاحب كما غطى كل شيء في الجوار عدا زوجته التي اقتربت من توم (٣٠ ؛ ف٢).

في الحقيقة إن ميرتل هي المرأة الوحيدة التي "نراها" تمارس الجنس في الرواية : عندما يعود نيك إلى شقتهما بعد أن ذهب لشراء السجائر نجد أنهما قد انسحبا إلى غرفة النوم ليظهرا فقط عندما تبدأ مجموعتهما بالوصول. كما أن اهتمام ميرتل بتوم هو عمل مرتزق على نحو واضح. فقد انجذبت نحو توم بسبب نوعية ملابسه المكلفة كما أنها تبدأ بالإنفاق من ماله فور لقائهما في المدينة ، وتريده أن يطلّق ديزي ويتزوجها هي لكي تنتقل من شقة الكراج التي شاركت جورج بها في الإحدى عشرة سنة الماضية.

من المهم أن نلاحظ أنه بالإضافة إلى الطريقة السلبية التي صورت بها الرواية هؤلاء النساء الثلاث (قليل من القراء من سيجد واحدة منها محببة)، نجدها تعاقب هؤلاء النساء مع تطور أحداث القصة. ويبدو من الصواب والمناسب في تلك المرحلة من القصة أن تبقى ديزي مرتبطة بتوم في زواج خال ينقصه الحب ، فهي لا تستحق أفضل من ذلك ونحن متأكدون إلى درجة ما – وبالنظر إلى اهتمام توم بالعلاقات الجنسية خارج الزواج – من أن عقوبتها تناسب جريمتها ، فيستمر توم في خيانتها كما كانت تخونه ، والأهم من ذلك أنها تعاقب جوردان عندما "يرمي بها" (١٨٦ ؛ ف ٩) نيك خلال محادثة هاتفية قبل مقتل جاتسبي بقليل. ويقوم نيك بزيارت الوداع لجوردان بعد ذلك : "أخبرتني بدون تعليق أنها قد خُطبت لرجل آخر ، أظن أن هناك العديد من الذين تستطيع أن تتزوجهم بإيماءة من رأسها" (١٨٥-١٨٦ ؛ ف ٩). وتقول جوردان لنيك خلال تلك الزيارة "لا أكترث بك ، ولكن [الرفض] كان تجربة جديدة بالنسبة لي ، وشعرت بالدوار للحظة" (١٨٦ ؛ ف٩) . إن طريقة إصرار جوردان على أنها لا تكترث يؤكد حقيقةأنها أخيراً : "أدركت أنها ليست كما كانت تظن نفسها. "

ومع ذلك ، فإن العقوبة الأكثر قسوة تنزل بالمرأة التي تشكل التهديد الأعظم للذكورية : ميرتل ويلسون. أقول التحدي الأعظم للذكورية لأنها تخرق أدوار الجنس التقليدية بدون هوادة ولأن حياتها الجنسية قد صورت ، رغم ضعف موقفها باعتبارها امرأة من الطبقة الاجتماعية المتدنية ، على أنها شكل من المغامرة والقوة الشخصية أكثر مما لدى ديزي وجوردان. فوجود زوجها يتلاشى في وجودها ، و"حيويتها المكثفة" (٣٥ ؛ ف٢) تجعلها الشيء الوحيد الذي يتميز في الكراج عن "اللون الإسمنتي للجدران" التي "تمتزج مع زوجها فورا" (٣٠ ؛ ف٢). حتى عندما يمر نيك مسرعا مع جاتسبي أمام كراج ويلسون في طريقهما إلى المدينة ، لا يستطيع إلا أن يلاحظ أن "السيدة ويلسون كانت تشد مضخة الكراج بحيوية تقطع الأنفاس" (٧٢ ؛ ف٤). وكما يعلق مايكلز "إن ويلسون رجل يتبع لامرأته وليس رجلا مستقلاً" (١٤٤ ؛ ف٧). وفي الحقيقة يعتقد مايكلز أنه "لا يوجد ما يكفي من ويلسون لزوجته" (١٦٧ ؛ ف٨). وتتحدى ميرتل توم مصرة على أن لها الحق في ذكر اسم ديزي : "'ديزي! ديزي! ديزي!' صرخت السيدة ويلسون. 'سأذكر اسمها متى أشاء'" (٤١ ؛ ف٢).

وعقوبتها لذكر اسم ديزي سريعة وبلا رحمة: "بحركة قصيرة وخاطفة كسر توم أنفها براحة يده" (٤١ ؛ ف٢)، ولكن نيك يحقّر الحادث مانعاً بذلك وبإحكام أي تعاطف يمكن أن نشعر به نحو ميرتل، فيخبرنا بعد ذلك أنه "كانت هناك مناشف ملطخة بالدماء على أراضي الحمام وكانت أصوات النساء تعنّف" (٤١ ؛ ف٢). ولا يعجب الوضع السيد ماكي الذي يخرج ببطء من الباب، ويتبعه نيك تاركين السيدة ماكي وكاثرين تعنفان وتعنفان كلما تعثرتا هنا وهناك بين الأثاث المتراكم وأدواته التي كن يستعن بها" (٤١ـ ٤٢ ؛ ف٢) وبتعبير آخر، فإن كسر أنف ميرتل ليس أمراً مهماً، ولكن مجرد فوضى تترك النساء ليقمن بتسويتها، إنه ليس أمرا هاماً لدرجة إثارة اهتمام الرجال، والأهم من ذلك هو أن ميرتل جلبت ذلك على نفسها.

وبالطبع، إن إيذاء توم لميرتل هو أمر ضئيل بالمقارنة بالعقاب الذي يحل بها في الرواية: فعندما تهرب ميرتل من زوجها محاولة إيقاف السيارة التي تظن أنها تحمل عشيقها تدهسها السيارة وتقتلها. ومن المهم أن نلاحظ أن موتها يتضمن تشويهاً جنسياً – "عندما شقوا قميصها الذي كان لا يزال متبللاً بالعرق رأوا أن ثديها الأيسر كان يتدلى بحرية،" (١٤٥ ؛ ف٧) – الأمر الذي يؤكد أن جريمة ميرتل الحقيقية هي حيويتها الجنسية أو مغامرتها. إن وصف موتها يختتم بإشارة إلى حيويتها: " كان الفم مفتوحاً على مداه ومشقوقا في الزاويتين كما لو أنها غصت في إخراج تلك الحيوية الهائلة التي خزنتها لوقت طويل" (١٤٥ ؛ ف٧). وهكذا رغم أن إساءة ميرتل أقل خطورة من إساءة ديزي وجوردان – فهي لا تقتل بالسيارة وتدع عشيقها يتحمل المسؤولية كما فعلت ديزي، ولا هي غير شريفة بالأصل كحال جوردان – إلا أن عقوبتها هي الأشد. ومن الواضح أن الرواية تجد أن المغامرة وخاصة المغامرة الجنسية الصفة الأكثر بشاعة التي لا يمكن التسامح معها في المرأة. فديزي وجوردان يمكن أن تكونا فتاتين سيئتين من وقت لآخر ولكن مغامرة ديزي الجنسية تجعلها "فتاة سيئة" في كل الأوقات.

إن عدم ارتياح رواية "جاتسبي العظيم" تجاه "المرأة الجديدة" في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، والأمر الذي رأت أنه مسؤول عن التصوير السلبي لشخصيات النساء الحديثة والمعالجة العقابية لهن، مستمر في الأيديولوجية الذكورية التي لا تزال تعمل في الثقافة الأمريكية اليوم. بالتأكيد لا تدان النساء الآن إذا ارتدين تنانير قصيرة، أو كان شعرهن قصيراً، أو إذا كان رقصهن صارخاً، أو إذا ذهبن إلى النوادي الليلية الصاخبة (إلا إذا تعرضن لعنف في هذه الظروف فعندها يلمن بجلبه على أنفسهن)، ولكن النساء لا يزال ينظر إليهن بعدم الرضى لانتهاكات أخرى لأدوار الجنس التقليدية، كاختيار إنجاب الأطفال خارج الزواج وتربيتهم بدون أب، وكالتأكيد على الجانب الجنسي في حياتهن كميلهن الزائد نحو النجاح في العمل وتقديم العمل على الزواج والأسرة: كل أنواع السلوك هذه التي تقوم بها النساء تعتبر غالبا "مشاكسة جدّاً، وتؤدي إلى السخرية منها في صناعتي التلفزة والأفلام. و كما الحال بالنسبة لميرتل ويلسون، فغالباً ما تعاقب النساء الأمريكيات اليوم بسبب ما ينظر إليه على أنه سلوك

مشاكس. وفي الحقيقة يود بعض الأمريكيين أن يلوموا تزايد هذا السلوك عند النساء أو ما ينظر إليه على أنه سبب لازدياد جرائم العنف ضد النساء في هذا البلد. وفي الوقت نفسه لا يود المجتمع أن يعترف أن جنس المرأة هو عامل في جرائم العنف التي ترتكب ضدها.

وأخيرا ورغم أنه قد جرى سن قوانين لحماية النساء من التحرش الجنسي في الوظائف ولحمايتهن من الاعتداء الجنسي والأشكال الأخرى للعنف المنزلي في البيت ولتعريف الاغتصاب باعتباره جريمة عنف بدلا من التغاضي عنه بوصفه جريمة انفعال، لا يزال الوعي الاجتماعي والإرادة لمساعدة ضحايا سوء المعاملة متأخرين عن التشريع. فمثلا ما زال هناك الاعتقاد بأن على الضحية أن تتحمل بعض اللوم: "كم قصر تنورتها"؟ "وهل استثارت زوجها قبل أن يضربها؟" ويسمى هذا "لوم الضحية": إذ نريد أن نعتقد أن سلوك المرأة المشاكس أو غير المناسب أو الغبي، وليس جنسها، هو الذي يسبب لها المشاكل وحتى تعريف الإف بي آي FBI (مكتب الاستخبارات الفيدرالي)لأصناف الجرائم، المنشور في نشرة الجامعة التي أعمل بها فيما يتعلق بأمن مباني الجامعة، يتجاهل دور الجنس في تعريفه لجرائم الكراهية التي يصفها بأنها: "جرائم تظهر دليلاً على التحامل المرتكز على العرق أو الدين أو التوجه الجنسي أو الإثنية" ("معلومات أمن الحرم الجامعي،" في جامعة جراند فالي الحكومية، ١٩٩٥).

لكن عندما قام شخص باقتحام جامعة كندية قبل عدة سنوات وصفّ طالبات الهندسة أمام جدار، وأطلق النار عليهن، ألم يكن ذلك جريمة كراهية للنساء؟ وكذلك عندما بدأت طالبات الهندسة في جامعة في الولايات المتحدة بعد هذا الحادث بتلقي رسائل تهديد مجهولة المصدر ألم يكن ذلك جريمة كراهية ضد النساء؟ أوليس الاغتصاب والمضايقة الجنسية وضرب الزوجات جرائم كراهية ضد النساء؟ بالطبع هي كذلك، ولكن على نحو عام لا يُعترف بأنها كذلك، وبتعبير آخر، لا يمكن التعامل مع الأيديولوجية الذكورية المسؤولة عن اضطهاد النساء بشكل فعال إلا إذا كان هناك اعتراف اجتماعي وقانوني بأنها لا تزال موجودة.

أستطيع أن أتفهم الصعوبة المتعلقة في التعرف على الأيديولوجية الذكورية لأنني مررت بهذه الصعوبة عندما تعرفت على هذه الأيديولوجية بنفسي عندما كنت ضحية لها. فحيث نشأت في أسرتي التي كانت تنتمي إلى الطبقة العاملة البيضاء كان التركيز على البقاء الاقتصادي وعلى قضايا الطبقة الاجتماعية بدلاً من الجنس. لقد علمني والديّ أن أدرك الطرق التي يقوم بها القادة السياسيون، والنظام الاجتماعي كله، بتفضيل الأغنياء ومعاقبة الطبقات الوسطى، و خاصة الطبقتين الوسطى- الوسطى والوسطى- الدنيا. فعندما شجعني والديّ بقوة على أن أدرس في الجامعة وألاّ أشعر بأن الزواج هدف لا يمكن تجنبه، كانا يعتقدان مع ذلك أنه من مصلحتي العليا أن أتدرب مدرسةً لأن ساعات العمل وطبيعته لن يتدخلا في واجباتي في المستقبل بوصفي زوجة وأماً في حال اخترت أن أتزوج. وربما كان غياب التركيز على قضايا الجنس واقتران هذا الغياب بتركيز قوي على القضايا السياسية الأخرى هما السببين اللذين ساعدا في منعي من رؤية عمليات الذكورية.

ولكنني متأكدة- مع ذلك- من أنني لم أتمكن من هذه الرؤية بسبب رغبتي في تجنب الألم: لم أرد أن أعلم كل الطرق التي كنت اضطهد فيها لأنني لم أعتقد أن هناك شيئاً أستطيع أن أفعله حيالها. وهكذا، فعندما فصلت من العمل بعد أن رفضت مرتين مواعدة رئيسي في العمل المتزوج اعتقدت ببساطة أنه لم يعد بحاجة إلى خدماتي. وعندما لم أتلق عرضاً للعمل من رجل أزحت يده عن ثديي الأيسر خلال المقابلة شعرت بالأسف نحو أية امرأة مسكينة قد يكون عليها أن تعمل عنده. وعندما لاحظت أن أحد أساتذتي في الجامعة يبدو عليه الحرج الشديد كلما اقتربت منه، وكان يغادر أية مجموعة كان يتحدث معها بسرعة عندما كنت أقترب منه، لم يخطر ببالي أنه كان لذلك علاقة بكوني المرأة الوحيدة في برنامج الدراسات العليا في الفلسفة في ذلك الوقت أو بأني أطول منه على نحو ملحوظ.

ولذلك ينبغي ألاّ يكون من المفاجئ أنني، وعندما قرأت "جاتسبي العظيم" لأول مرة في العشرينيات من عمري، وجدت الشخصيات النسائية - وخاصة ميرتل - عديمات الرحمة، وغير أخلاقيات، وغير متعاطفات، ولم يخطر لي أنه كان للرواية برنامج ذكوري. لم أر أية ارتباطات بين تصوير الرواية للنساء والصور العديدة التي رأيتها للنساء في أعمال كتبها ذكور على أساس جنسي. وأحببت الرواية (ولا أزال أقدر عالياً هذه الأعمال ولكن لأسباب مختلفة اليوم) لأنني لم أر أن هذه الصور كانت مبنية على أساس جنسي. إن عملية "فتح عيني" كانت طويلة ومؤلمة ولا تزال مستمرة. وأعلم من حديثي مع العديد من الطلاب والأصدقاء والزملاء أن تجربتي مشتركة مع الكثير مع النساء وبعض الرجال.

فمن الواضح أن هناك ارتباطاً بين قدرتنا على التعرف على الإيديولوجية الذكورية وإرادتنا في تحمل الألم الذي يمكن أن تسببه هذه المعرفة. وربما يكون هذا سبب نظر الكثير من الرجال والنساء بريبة نحو النسوية اليوم: إنها كالمرآة لا تعكس حياتنا الاجتماعية فحسب، بل حياتنا الخاصة أيضاً، وتطلب منا إعادة النظر في أغلب تجاربنا الشخصية وافتراضاتنا الأكثر سهولة وترسخاً. ولهذا السبب يمكن أن تكون أعمال مثل "جاتسبي العظيم" ذات فائدة كبيرة للطلاب المبتدئين في النقد النسوي. فبمساعدتنا على التعرف على طريقة عمل الإيديولوجية الذكورية في الأدب تهيئنا هذه الأعمال في توجيه منظورنا النسوي حيث يجب أن نوجهه في نهاية الأمر وبوضوح أشد: نحو أنفسنا.

أسئلة لمزيد من التدريب: تطبيق النهج النسوي على أعمال أدبية أخرى

أقدم الأسئلة التالية لتكون نماذج تساعد في استخدام النقد النسوي لتفسير الأعمال الأدبية التي أشير إليها هنا أو أية أعمال أخرى يختارها القارئ.

١- كيف تنتقد قصة "ورق الجدران الأصفر" The Yellow Wallpaper (١٨٩٢) للكاتبة شارلوت بيركينز جيلمان Charlotte Perkins Gilman الأيديولوجية الذكورية، وخاصة كما تظهر في الزواج والممارسات الطبية في القرن التاسع عشر؟

٢- كيف تعكس رواية "قلب الظلام" Heart of Darkness لجوزيف كونراد Joseph Conrad العقيدة الذكورية من خلال تعليقات مارلو عن النساء وموقفه تجاههن في تقديمه المبني على الجنس لكثير من الشخصيات النسائية الثانوية اللواتي تغص بهن الرواية (بما في ذلك عمة السيد كيرتز والمرأة البدائية وغاسلة الثياب من السكان الأصليين والنساء اللواتي يرتدين السواد في مركز إدارة الشركة في أوربا)؟ هل تدعونا الرواية لقبول تحيز مارلو الجنسي أو نقده؟ وهل الرواية مدركة لهذا التحيز الجنسي؟

٣- كيف تكشف رواية "المحبوبة" (١٩٨٧) Beloved لتوني موريسون الطرق التي يتداخل فيها العرق بالجنس في خلق تجربة المرأة؟ كيف يؤكد العمل أهمية الأخوة لمجتمع النساء؟ وكيف يمكننا أن نناقش بأن الرواية تؤثر فينا مثالاً عن الكتابة النسائية؟

٤- عندما نشرت قصة "العاصفة" The Storm للكاتبة كيت تشوبن Kate Chopin عام ١٨٩٨ كان يعتبر تملّك المرأة رغبة جنسية أمراً غير طبيعي بشكل عام. كيف تنتقد القصة هذا الاعتقاد الذكوري؟ وما هي الأيديولوجيات الذكورية الأخرى التي تنتقدها القصة؟ وماذا تقول القصة عن تشابك الذكورية والدين والطبقة الاجتماعية- الاقتصادية؟

٥- بأية طرق يمكن أن نقول أن قصة "زهرة لإيميلي" A Rose for Emily (١٩٣١) للكاتب وليام فوكنر تتلاعب بالتصنيفات التقليدية للجنس لتظهر تحيزات التعاريف التقليدية للجنس وقصورها؟

For further reading:

Backlund, Philip M., and Mary Rose Williams, eds. Readings in Gender Communication. Belmont, Calif.: Wadsworth, 2004.

Bobo, Jacqueline, ed. Black Feminist Cultural Criticism. Malden, Mass.: Blackwell, 2001.

Frye, Marilyn. Willful Virgin: Essays in Feminism. Freedom, Calif.: Crossing, 1992.

Gilbert, Sandra M., and Susan Gubar. Madwoman in the Attic: The Woman Writer and the Nineteenth-Century Literary Imagination. New Haven: Yale University Press, 1979.

Guy-Sheftall, Beverly. Words of Fire: An Anthology of African-American Feminist Thought [1831–1993]. New York: New Press, 1995. Hooks, Bell. Ain't I a Woman: Black Women and Feminism. Boston: South End Press, 1981.

Mohanty, Chandra Talpade, Ann Russo, and Lourdes Torres, eds. Third World Women and the Politics of Feminism. Bloomington: Indiana University Press, 1991.

Moi, Toril. Sexual/Textual Politics: Feminist Literary Theory. 2nd ed. New York: Routledge, 2000.

Moraga, Cherrie, and Gloria Anzaldua. This Bridge Called My Back: Writings by Radical Women of Color. 2nd ed. New York: Kitchen Table: Women of Color Press, 1983.

Oliver, Kelly, ed. The French Feminism Reader. New York: Rowman & Littlefield, 2000.

Showalter, Elaine. A Literature of Their Own: British Women Novelists from Brontë to Lessing. Princeton: Princeton University Press, 1977.
Woolf, Virginia. A Room of One's Own. London: Hogarth, 1929.
Zinn, Maxine Baca, Pierrette Hondagneu-Sotelo, and Michael A. Messner, eds. Through the Prism of Difference: Readings on Sex and Gender. Boston: Allyn & Bacon, 1997.

For advanced readers:

Allen, Paula Gunn. The Sacred Hoop: Recovering the Feminine in American Indian Traditions. Boston: Beacon Press, 1986.
Beauvoir, Simone de. The Second Sex. 1949. Trans. H. M. Parshley. Harmondsworth, U.K.: Penguin, 1972.
Boone, Joseph A., and Michael Cadden, eds. Engendering Men: The Question of Male Feminist Criticism. New York: Routledge, 1991.
Cixous, Helene. "Sorties: Out and Out: Attacks/Ways Out/Forays." Rpt. in The Feminist Reader. 2nd ed. Ed. Catherine Belsey and Jane Moore. Malden, Mass.: Blackwell, 1997. 91–103.
Irigaray, Luce. This Sex Which Is Not One. 1977. Trans. Catherine Porter with Carolyn Burke. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1985.
James, Joy, and T. Denean Sharply-Whiting, eds. The Black Feminist Reader. Malden, Mass.: Blackwell, 2000.
Kristeva, Julia. The Kristeva Reader. Ed. Tori1 Moi. Oxford: Blackwell, 1986.
Leonard, Diana, and Lisa Adkins, eds. Sex in Question: French Materialist Feminism.
London: Taylor & Francis, 1996.
Mitchell, Juliet. Psychoanalysis and Feminism. Harmondsworth, U.K.: Penguin, 1974.
Spivak, Gayatri Chakravorty. In Other Worlds: Essays in Cultural Politics. New York: Routledge, 1987.
Warhol, Robyn R., and Diane Price Herndl, eds. Feminisms: An Anthology of Literary Theory and Criticism. 2nd ed. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1997.

Works cited:

Beauvoir, Simone de. "Introduction." The Second Sex. Rpt. in French Feminism Reader. Ed. Kelly Oliver. New York: Rowman & Littlefield, 2000. 6–20.
Bethel, Lorraine. " 'This Infinity of Conscious Pain': Zora Neale Hurston and the Black Female Literary Tradition." All the Women Are White, All the Blacks Are Men, but Some of Us Are Brave. Ed. Gloria T. Hull, Patricia Bell Scott, and Barbara Smith. Old Westbury, N.Y.: Feminist Press, 1982. 176–88.
Brannon, Linda. Gender: Psychological Perspectives. 4th ed. Boston: Pearson/Allyn & Bacon, 2005.
Bruccoli, Matthew J. "Preface." The Great Gatsby. F. Scott Fitzgerald. New York: Macmillan, 1992. vii–xvi.
Cixous, Helene. "Sorties: Out and Out: Attacks/Ways Out/Forays." Rpt. in The Feminist Reader. 2nd ed. Ed. Catherine Belsey and Jane Moore. Malden, Mass.: Blackwell, 1997. 91–103.
Cranny-Francis, Anne, Wendy Waring, Pam Stavropoulos, and Joan Kirkby. Gender Studies: Terms and Debates. New York: Palgrave Macmillan, 2003.
Delphy, Christine. Close to Home: A Materialist Analysis of Women's Oppression. Trans. Diana Leonard. London: Hutchinson, 1984.
Denard, Carolyn. "The Convergence of Feminism and Ethnicity in the Fiction of Toni
Morrison." Critical Essays on Toni Morrison. Ed. Nellie Y. McKay. Boston: G. K. Hall, 1988. 171–78.
Fausto-Sterling, Anne. Sexing the Body: Gender Politics and the Construction of Sexuality. New York: Basic Books, 2000.
Fitzgerald, F. Scott. The Great Gatsby. 1925. New York: Macmillan, 1992.
———. Tender Is the Night. New York: Scribner's, 1934.
Guillaumin, Colette. "The Practice of Power and Belief in Nature." Sex in Question: French Materialist Feminism. Ed. Diana Leonard and Lisa Adkins. London: Taylor & Francis, 1996. 72–108.
Hansen, Jennifer. "One Is Not Born a Woman." The French Feminism Reader. Ed. Kelly Oliver. New York: Rowman & Littlefield, 2000. 1–6.
Helliwell, Christine. " 'It's Only a Penis': Rape, Feminism, and Difference." Signs: Journal of Women in Culture and Society 25.3 (2000): 789–816. Rpt. in The Kaleidoscope of Gender: Prisms, Patterns, and Possibilities. Ed. Joan Z. Spade and Catherine G. Valentine. Belmont, Calif.: Wadsworth/Thomson, 2004. 122–36.

Irigaray, Luce. This Sex Which Is Not One. Trans. Catherine Porter. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1985.

Kristeva, Julia. Desire in Language: A Semiotic Approach to Literature and Art. Ed. Leon S. Roudiez. New York: Columbia University Press, 1980.

———. "Woman's Time." Trans. Alice Jardine and Harry Blache. Signs 7 (1981): 13– 35. Rpt. in The French Feminism Reader. Ed. Kelly Oliver. New York: Rowman & Littlefield, 2000. 181–200.

Lepowsky, Maria Alexandra. "Gender and Power." Fruit of the Motherland. New York: Columbia University Press, 1993. Rpt. in The Kaleidoscope of Gender: Prisms, Patterns, and Possibilities. Ed. Joan Z. Spade and Catherine G. Valentine. Belmont, Calif.: Wadsworth/Thomson, 2004. 150–59.

Lorber, Judith. "Believing Is Seeing: Biology as Ideology." Gender and Society 7.4 (December 1993): 568–81. Rpt. in Through the Prism of Difference: Readings on Sex and Gender. Ed. Maxine Baca Zinn, Pierrette Hondagneu-Sotelo, and Michael A.

Messner. Boston: Allyn & Bacon, 1997. 13–22.

Miller, Arthur. Death of a Salesman. New York: Viking, 1949.

Moi, Toril. Sexual/Textual Politics: Feminist Literary Theory. New York: Methuen, 1985.

Morrison, Toni. The Bluest Eye. New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1970.

Nanda, Serena. "Multiple Genders among North American Indians." Gender Diversity: Crosscultural Variations. Prospect Heights, Ill.: Waveland, 2001. Rpt. in The Kaleidoscope of Gender: Prisms, Patterns, and Possibilities. Ed. Joan Z. Spade and Catherine G. Valentine. Belmont, Calif.: Wadsworth/Thomson, 2004. 64–70.

Perry, Linda A. M., and Deborah Ballard-Reisch. "There's a Rainbow in the Closet: On the Importance of Developing a Common Language for 'Sex' and 'Gender.' " Readings in Gender Communication. Ed. Philip M. Backlund and Mary Rose Williams. Belmont, Calif.: Thomson/Wadsworth, 2004. 17–34.

Preeves, Sharon E. "Sexing the Intersexed: An Analysis of Sociocultural Responses to
Intersexuality." The Kaleidoscope of Gender: Prisms, Patterns, and Possibilities. Ed.
Joan Z. Spade and Catherine G. Valentine. Belmont, Calif.: Wadsworth/Thomson,
2004. 31–45. Based on "Sexing the Intersexed." Signs: Journal of Women in
Culture and Society 27:2 (2001): 523–26.

Sapolsky, Robert M. "The Trouble with Testosterone: Will Boys Just Be Boys?" The Trouble with Testosterone. New York: Scribner's/Simon & Schuster, 1997. Rpt. in The Gendered Society Reader. Ed. Michael S. Kimmel. New York: Oxford University Press, 2000. 14–20.

Shelley, Mary. Frankenstein. London: Lackington, Hughes, Harding, Mavor, & Jones, 1818.

Spade, Joan Z., and Catherine G. Valentine. "Introduction." The Kaleidoscope of Gender: Prisms, Patterns, and Possibilities. Ed. Joan Z. Spade and Catherine G. Valentine. Belmont, Calif.: Wadsworth/Thomson, 2004. 1–13.

Walker, Alice. In Search of Our Mothers' Gardens. San Diego: Harcourt Brace Jovanovich, 1984.

Wollstonecraft, Mary. A Vindication of the Rights of Woman: With Strictures on Political and Moral Subjects. London: J. Johnson, 1792.